جامعة بيرزيت
BIRZEIT UNIVERSITY

كلية الآداب-كلية الدراسات العليا
برنامج ماجستير الدراسات العربية المعاصرة

الصياد والتنين:
المطاردة في التجربة الفلسطينية من 1968-2018

The Hunter and the Dragon:
Fugitivity in the Palestinian Condition 1968-2018

إعداد الطالب: زكريا محمد زبيدي
إشراف: د. عبد الرحيم الشيخ

2022

جامعة بيرزيت
BIRZEIT UNIVERSITY

كلية الآداب-كلية الدراسات العليا
برنامج ماجستير الدراسات العربية المعاصرة

الصياد والتنين:
المطاردة في التجربة الفلسطينية من 1968-2018

The Hunter and the Dragon:
Fugitivity in the Palestinian Condition 1968-2018

إعداد الطالب: زكريا محمد زبيدي
إشراف: د. عبد الرحيم الشيخ

قُدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في الدراسات العربية المعاصرة
من كلية الدراسات العليا-كلية الآداب في جامعة برزيت، فلسطين

الفصل الثاني 2021-2022

كلية الآداب-كلية الدراسات العليا
برنامج ماجستير الدراسات العربية المعاصرة

الصياد والتنين:
المطاردة في التجربة الفلسطينية من 1968-2018

The Hunter and the Dragon:
Fugitivity in the Palestinian Condition 1968-2018

رسالة ماجستير مقدَّمة من الطالب

زكريا محمد زبيدي

تاريخ المناقشة: 2 تموز 2022

لجنة المناقشة

د. عبد الرحيم الشيخ (مشرفاً)

د. جمال ضاهر (عضواً)

د. وليد الشرفا (عضواً)

قُدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في الدراسات العربية المعاصرة
من كلية الدراسات العليا-كلية الآداب في جامعة برزيت، فلسطين

الفصل الثاني 2021-2022

"أَنْتُمْ مِلْحُ الأَرْضِ،
وَلكِنْ إِنْ فَسَدَ الْمِلْحُ فَبِمَاذَا يُمَلَّحُ؟
لاَ يَصْلُحُ بَعْدُ لِشَيْءٍ، إِلاَّ لأَنْ يُطْرَحَ خَارِجًا وَيُدَاسَ مِنَ النَّاسِ.
أَنْتُمْ نُورُ الْعَالَمِ. لاَ يُمْكِنُ أَنْ تُخْفَى مَدِينَةٌ مَوْضُوعَةٌ عَلَى جَبَل."

كلام المطارد الأول،
والشـــــــهيد الأول،
يسوع الفلسطيني النبي،
في عظة الجبل، العهد الجديد

الإهداء

إلى والديَّ العزيزين،
إلى إخوتي جميعاً، الشهداء والأسرى،
إلى الأصدقاء ورفاق الدرب،
إلى شهداء وأسرى وجرحى فلسطين،
إلى كل الأحرار في العالم ...

الشكر والتقدير،

لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر والتقدير للأخ الأستاذ عبد الرحيم الشيخ، الذي وجَّهني ووقف إلى جانبي طيلة فترة إنجاز هذه الرسالة، وإلى لجنة المناقشة الأكارم، الأستاذين وليد الشرفا وجمال ضاهر، وكليتَي الآداب والدراسات العليا في جامعة بيرزيت. وإلى كل من ساهم في إنجاز هذه الرسالة.

الفهرس

الإهداء..... ج

الشكر..... ح

الفهرس..... خ

الملخص بالعربية..... ذ

الملخص بالإنجليزية..... ر

نقاش الرسالة ومداخلات اللجنة..... ز
عبد الرحيم الشيخ
جمال ضاهر
وليد الشرفا
مروان البرغوثي
وليد دقة
إلياس خوري
تقرير اللجنة

الفصل الأول: تحديدات منهجية..... 1

1.1 تمهيد الدراسة
1.2 إشكالية الدراسة
1.3 فرضية الدراسة
1.4 أهمية الدراسة
1.5 أهداف الدراسة
1.6 منهجية الدراسة
1.7 ملاحظة نظرية حول الدراسة
1.8 الصياد والتنين: المجاز المعكوس
1.9 أدبيات الدراسة-المطاردة في التجربة الفلسطينية

الفصل الثاني: المطاردة وثقافة المواجهة..... 16

2.1 المطاردة في الثقافة العالمية
2.1.1 مفهوم المطاردة في الثقافة العالمية
2.1.2 نماذج عالمية
2.1.2.1تجربة الهنود الحمر
2.1.2.2تجربة الأكراد
2.1.2.3تجربة نمور التاميل
2.1.2.4تجربة جنوب أفريقيا

2.1.2.5جيفارا الثائر العنيد
2.2 المطاردة في الثقافة العربية
2.2.1 مفهوم المطاردة في الثقافة العربية
2.2.2. نماذج عربية
2.2.2.1مطاردات قديمة: عيسى، محمد، الخارجي، الحسين
2.2.2.2مطاردات حديثة: الخطابي، الجزائري، المختار

الفصل الثالث: المطاردة من منظور المطارَدين..... 35

3.1 مفهوم المطاردة في الفكر النضالي الفلسطيني
3.2 المطاردة في التجربة الفلسطينية 1968-2018
3.3 تجربة المطاردة كما يرويها أصحابها
3.3.1 أسباب المطاردة
3.3.2 حيثيات المطاردة
3.3.3 ما بعد المطاردة

الفصل الرابع: الصياد والتنين في جنين..... 45

4.1 هوية أولى للتنين
4.2 زمان التنين ومكانه
4.3 التنين والصياد
4.4 التنين وملاك الموت
4.5 التنين والناس

الملاحق..... 65
ملحق رقم (1): أسئلة عامة حول التجربة النضالية والاعتقالية والتحررية
ملحق رقم (2): أسئلة المقابلة المختصة بتجربة المطاردة

المرجعية..... 72
قائمة المصادر والمراجع

الملخص

الصياد والتنين:
المطاردة في التجربة الفلسطينية من 1968-2018

تبحث هذه الدراسة المطاردة في التجربة الفلسطينية، وتنقسم إلى أربعة فصول: يتناول الفصل الأول فيها الإطار المنهجي وتحديداته، والهيكلية العامة للدراسة، وأدبيات الدراسة حول المطاردة في التجربة الفلسطينية. فيما يستعرض الفصل الثاني المطاردة وثقافة المواجهة في الثقافة العالمية والعربية. أما الفصل الثالث، فيتناول المطاردة من منظور المطارَدين كما انعكست في المقابلات التي شملتها العينة البحثية. وأما مرويَّة المطارَد والتجربة الشخصية لكاتب هذه الدراسة، فيتناولها الفصل الرابع بالسرد والتحليل، بعنوان: الصياد والتنين في جنين. فيما تقتصر الخاتمة على رأي الباحث بأن المطاردة هي تجربة ذات نهاية مفتوحة ما دام الصراع قائماً في فلسطين.

وتسعى هذه الدراسة للإجابة على سؤال مركزي، مفاده: كيف شكَّلت التجربة الفلسطينية في المطاردة، وطرق وأساليب تحقّقها، نموذجاً خاصاً في مواجهة العدو الاستعماري الاستيطان الصهيوني، مختلفاً عن بقية التجارب العربية والعالمية. وتفترض الدراسة وجود تجربة مطاردة فلسطينية فريدة وغنية بأساليبها النضالية-الثورية وتختلف تاريخياً عن باقي التجارب. وبالتالي، يمكن الاستفادة من هذه التجربة في مواجهة العدو الصهيوني، وبتعميمها على التجارب الثورية الشبيهة في العالم التي لا زالت تعاني من استعمارات حداثية للشعوب الأصلانية. وتكتسب الدراسة أهميتها من التجربة الخاصة للباحث نفسه الذي عاش تجربة المطاردة في مراحل مختلفة من حياته.

على المستوى المنهجي، تجمع الدراسة بين ثلاث أدوات أساسية، هي: تحليل الأدبيات المتعلقة بالمطاردة على المستويات العالمية، والعربية، والفلسطينية؛ والمقابلات الشخصية مع 26 مطارداً فلسطينياً عاشوا تجربة المطاردة بين الأعوام 1968-2018؛ والتجربة الشخصية للباحث نفسه، الذي كان أحدَ المطارَدين خلال انتفاضتي الحجارة في العام 1987 (في أجواء مجموعات "الفهد الأسود")، والأقصى في العام 2000 (بوصفه أحد مؤسسي "كتائب شهداء الأقصى")، وبعدهما حتى العام 2018 الذي اعتقلته فيه، مجدداً، قوات الاحتلال الصهيوني، ومشاركته في تجربة التحرر في "نفق الحرية" من سجن "جلبوع" في بيسان المحتلة في 6 أيلول، 2021، وبقائه في المطاردة مدة خمسة أيام.

ورغم تسجيل حالات مطاردة في فلسطين من العام 1905، الذي شهد بداية الغزو الصهيوني لفلسطين، ومروراً بالحقب العثمانية، والبريطانية، والصهيونية، والوصايتين الأردنية والمصرية... إلا أن هذه الدراسة تختص بتجربة المطاردة بفترة التحرر الوطني التي تلت تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية في العام 1964، وخاصة بعد صدور الميثاق الوطني الفلسطيني في العام 1968، وحتى العام 2018، مع تركيز خاص على انتفاضة الحجارة وانتفاضة الأقصى. وتحدَّد الدراسة مكانياً بفلسطين التاريخية، فيما تستثني الملاحقة والاغتيالات الصهيونية للفلسطينيين في الشتات.

Abstract

The Hunter and the Dragon:
Fugitivity in the Palestinian Condition, 1968-2018

This study investigates fugitivity in the Palestinian condition. The the consists of four chapters: *Chapter I* illustrates the study's method, structure, and the state of the literature within the Palestinian context. *Chapter II* presents an extension of the literature review to both the Arab and the global contexts. *Chapter III* interrogates fugitivity from the point of view of the fugitives themselves as reflected through the interviews with 26 fugitives included in the research sample. *Chapter IV* is devoted to the personal narrative of the researcher himself, from his earliest days in Jenin and throughout his revolutionary odyssey. As for the *Conclusion*, to show the journey of the fugitive has not ended, the researcher composed a statement from his prison cell in solitary confinement declaring that fugitivity will remain an open-ended experience until the struggle for Palestine comes to an end.

The problematic of this study focuses on an exploration of fugitivity in the Palestinian condition, in terms of its ways and methods, and how this reality and concept constitutes a unique case in confronting the settler colonial violence of the zionist enemy. This experience, the study argues, is distinct from the other conditions of colonial violence, be it in the Arab or global context. The study argues that Palestinian fugitivity is a unique and rich experience that differs in its revolutionary methods from other experiences elsewhere, but can, nevertheless, be instructive for all oppressed peoples. Because of what Palestinian fugitivity has accomplished in the ongoing war with zionist enemy, exploring its past and present would be of a great benefit to similar as well as different colonial conditions whose violence continues to oppress Indigenous peoples. This study is of exceptional importance because it is both the work as well and the narrative of the researcher's own experience in fugitivity, throughout the different phases of his life.

At the methodological level, the study combines three tools that include an in-depth literature analysis, ethnographic work and the personal narrative of the researcher. Beginning with a broad presentation of fugitivity literature from the Palestinian, Arab, and international experiences, the author frames his thesis. He then presents the work that drew from personal and extensive interviews with 26 Palestinian fugitives who experienced fugitivity between 1968-2018. Finally, the researcher's own experience is highlighted as a lived experience of fugitivity. His life story is an exceptional narrative of one who bore witness to and embodied the concept, from his youth during the first Intifada of 1987 in Jenin where the Black Panthers cells first emerged, to his story during al-Aqsa Intifada of 2000 as the co-founder of al-Aqsa Martyrs Brigades, and thereafter until his capture by the zionist Occupation Forces in 2018. Even as a prisoner, the concept of fugitivity that he presents in this thesis continued to be his way-of being as one of the six political prisoners who sought freedom through their historic prison break through the "Gilboa Tunnel," in the occupied city of Bisan, on 6 September 2021. The researcher, as a non-prisoner *fugitive*, this time, remained in the freedom he and his comrades literally forged for five days before being recaptured.

In spite of the fact that fugitivity can be traced back to 1905, the material beginning of the violence of zionist colonization of Palestine, and subsequently throughout the late Ottoman, British, and zionist colonial dominations (as well later during the time of Jordanian and Egyptian rule over parts of Palestine), this study focuses on fugitivity during the national liberation era after the establishment of the Palestinian Liberation Organization (1964), and particularly after the adoption of the Palestinian National Charter (1968). In addition, a special emphasis is placed on the experiences of fugitivity during the Intifada of 1987 and al-Aqsa Intifada of 2000. Through zionist military forces chased and murdered Palestinians beyond the borders of historic Palestine, this study restricts its mandate to the experiences of fugitivity in Palestine.

نقاش رسالة الماجستير للأسير زكريا زبيدي

نوقشت يوم السبت 2 تموز / يوليو 2022، رسالة الأسير زكريا زبيدي، الطالب في برنامج الدراسات العربية المعاصرة، في جامعة بيرزيت، بعنوان: "الصياد والتنين: المطاردة في التجربة الفلسطينية، 1968 - 2018"، وذلك في مسرح نسيب عزيز شاهين، في حرم الجامعة. وقد جرى النقاش بحضور عائلة الأسير زبيدي، وجمهور أكاديمي وطلابي وشعبي واسع. وقد كانت الرسالة بإشراف الأستاذ عبد الرحيم الشيخ، وعضوية كل من الأستاذين جمال ضاهر ووليد الشرفا. ابتدأ النقاش بالوقوف دقيقة صمت على أرواح شهداء فلسطين، ومن ثم عُرض فيلم تضمَّن تسجيلات صوتية ومصورة للطالب الأسير زبيدي، تم إعداده من مواد اشتملت على تسجيلات فيديو من الفترة السابقة لاعتقاله (بما فيها محاضرات في الجامعة، وتسجيلات خلال العمل على الرسالة، ومقتطفات من مقابلات إعلامية، ووثائق ذات علاقة)، وبالصوت أثناء وجوده في الأسر، ومواد من فيلم "الحافة" الذي أخرجه الإعلامي والشاعر، المقيم في بروكسل، زياد أبو الرُّب. تلا ذلك تقديم العروض النقدية من قبل لجنة الإشراف والمناقشة، التي أشادت بالرسالة، وبالممارسة التي أُسّست عليها.
وفي لفتة تشير إلى مواصلة زبيدي للمسيرة الأكاديمية من داخل الأسر، عُرضت خلال النقاش ثلاث رسائل مسجلة من الأسر الفلسطيني والشتات ضمن "لجنة المعرفة والحرية" التي شُكلت بطلب من الأسير زبيدي وبموافقة لجنة الإشراف والمناقشة. وقد تلت الأستاذة فدوى البرغوثي رسالة زوجها الأسير مروان البرغوثي من سجن "هداريم" في تسجيل فيديو، وعُرض تسجيل صوتي لرسالة الأسير وليد دقة من سجن عسقلان، ورسالة مسجلة بالفيديو من الروائي إلياس خوري من بيروت. وقد نُشر التسجيل الكامل لمجريات وقائع النقاش على الصفحة الرسمية لجامعة بيرزيت.[1] كما نشرت مجلة الدراسات الفلسطينية ريبورتاجاً خاصاً بوقائع النقاش.[2]

---

[1] "نقاش رسالة ماجستير الطالب الأسير زكريا محمد زبيدي "الصياد والتنين: المطاردة في التجربة الفلسطينية 1968-2018". 2 تموز 2022.
https://fb.watch/emoDNKLdQN/?mibextid=7ovdaX
"الصياد والتنين: نقاش رسالة الطالب الأسير زكريا زبيدي". جامعة بيرزيت. 2 تموز 2022.
https://www.birzeit.edu/ar/news/lsyd-wltnyn-nqsh-rsl-ltlb-lsyr-zkry-zbydy

[2] تحية لزكريا زبيدي "الصياد والتنين"، **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد 132، 2022، ص. 24-44.
https://www.palestine-studies.org/ar/node/1653181

بيان لجنة المناقشة

عبد الرحيم الشيخ

في أول زيارة لزكريا زبيدي إلى جامعة بيرزيت في 13 تشرين الأول / أكتوبر 2016، جاء ليلقي محاضرة بعنوان: "المخيم، السجن المزدوج، وقلب القناص"، في مساق "دفاتر السجن: الحركة الفلسطينية الأسيرة". حينها كان خارجاً للتو من سجن غير سجون العدو، وكان ممنوعاً أن يغادر حدود رام الله. وحدود رام الله كما فهمها زكريا حينها، وكما قال لي: هي "كازيات الهدى" في أطراف المدينة. خشيتُ حينها عليه، واقترحت أن نعقد اللقاء في مركز التعليم المستمر، التابع للجامعة، في رام الله. رفض زكريا بشدة، وجاء إلى الجامعة مطارَداً في وطنه. استقبلتُه، حينها، وأديت له التحية العسكرية أمام كلية الآداب... واليوم، يا زكريا، نؤدي لك التحية العسكرية بشكل جماعي، وأنت في عزل سجن الرملة. وهذا بيان لجنة المناقشة:

بداية البيان: "قُبل الأسير زكريا زبيدي في برنامج الماجستير في الدراسات العربية المعاصرة بتاريخ 27 أيار / مايو 2017، وانتظم في الدراسة في الفصل الأول من العام الدراسي 2017 - 2018. وتقدم بمقترح لمسار رسالة الماجستير، وتم إقراره وتسجيل الرسالة بتاريخ 17 أيلول / سبتمبر، 2018، وعنوانها، بالعربية: "الصياد والتنين: المطاردة في التجربة الفلسطينية، 1968 - 2018".

اعتقلت قوات الاحتلال الصهيوني زبيدي بتاريخ 28 شباط / فبراير، 2019، وكان قد أنجز الفصلين الأول والثاني من رسالته، كما أنجز فيها العمل الميداني بإجراء 26 مقابلة. وقد نوقش مقترحه الموسَّع، والمكوَّن من الفصلين الأول والثاني، وأُقرَّ من قبل لجنة البرنامج بتاريخ 27 آذار / مارس، 2019. وخلال التواصل بين مشرف الأسير زبيدي، والأهل، ومحامي نادي الأسير الفلسطيني وهيئة شؤون الأسرى والمحرَّرين والحملة الشعبية لإطلاق سراح القائد مروان البرغوثي وكافة الأسرى، تمكَّن الأسير زبيدي من اجتياز المساق المتبقي له (حين اعتقاله) بنجاح، وذلك بتسجيل خاص خلال الفصل الدراسي الثاني 2020 - 2021. كما تمكَّن، وبالآلية نفسها، من تطوير الفصل الثالث، وكتابة الفصل الرابع من رسالته خلال وجوده في سجن "جلبوع" في بيسان المحتلة. وقد نُشر الفصل الرابع، بإذن خاص من الأسير زبيدي، في العدد الخاص بالأسرى من "مجلة الدراسات الفلسطينية"، بعنوان: "الصياد والتنين".[3]

بعد تحرره التجريبي المؤقت، ورفاقه الخمسة، عبر "نفق الحرية" من سجن "جلبوع" في بيسان المحتلة، بتاريخ 6 أيلول / سبتمبر، 2021، ومن ثم إعادة اعتقاله في 11 أيلول / سبتمبر، 2021، أصدرت جامعة بيرزيت بياناً للرأي العام بتاريخ 13 أيلول / سبتمبر، 2021، تعهَّدت فيه باستكمال إجراءات نقاش الرسالة بعد استيفائها الشروط حسب الأصول.[4] ولا يزال الأسير زبيدي في العزل الانفرادي لدى سلطات الاحتلال الصهيونية في السجون الصهيونية منذئذٍ، علماً أن قناة التواصل الوحيدة معه هي عبر المحامين من الجهات المذكورة آنفاً. وقد وافق الأسير زبيدي على نقاش رسالته غيابياً، على أن تُعرَض في جلسة النقاش تسجيلات بالصورة من الفترة السابقة لاعتقاله، وبالصوت أثناء وجوده في الأسر، توضح سير عمله لإنجاز رسالته المطارَدة، والمطارِدة.

---

[3] زكريا زبيدي، "الصياد والتنين"، **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد 128 (2021)، ص. 105-121. للمزيد، انظر: https://www.palestine-studies.org/sites/default/files/mdf-articles/105-121.pdf

[4] للاطلاع على بيان الجامعة، بعنوان: "جامعة بيرزيت تنظر بقلق إزاء تعرض الأسرى للتعذيب الشديد بعد محاولتهم التحرر"، نشر بتاريخ 2021/09/13، انظر:
https://www.birzeit.edu/ar/news/jm-byrzyt-tnzr-bqlq-z-trd-lsr-lltdhyb-lshdyd-bd-mhwlthm-lthrr?fbclid=IwAR2R9BPeVu_963e2kkU4iSXCqFSan8gNYt4ahJyi314-Frj5-yH7pFHOg0c&mibextid=vgW32m&fs=e&s=cl

لم يتمكن الأسير زكريا زبيدي من كتابة خاتمة لهذه الدراسة. لكنه في آخر تواصل معه يوم 26 آب / أغسطس 2021، قبل تحرُّره التجريبي ورفاقه، عبر "نفق الحرية" في سجن "جلبوع" في بيسان المحتلة بتاريخ 6 أيلول / سبتمبر 2021، طلب "حذف النقطة من آخر الرسالة"، رسالته للماجستير في جامعة بيرزيت، بعنوان: "الصياد والتنين: المطاردة في التجربة الفلسطينية، 1968 - 2018"، بالقول حرفياً:

"... في الخاتمة في نقطة، أنا بفظِّل تقيمها.
خاتمة الرسالة. مش خلصنا من الرسالة كلَّييتها...
النقطة الأخيرة قِيمْها. الـ Dot الـ Dot"

وفي أول زيارة للمحامية بثينة دقماق له، بعد حدث "نفق الحرية"، بتاريخ 21 تشرين الأول / أكتوبر 2021، أوضح زكريا زبيدي لها معنى النقطة التي أراد إزالتها، بالقول حرفياً: "بِدِّي تظل قصِّة الصياد والتنين مفتوحة، قبل التحرر من سجن "جلبوع"، وبعده، القصة ما انتهت" وجدير بالذكر أن تجربة الاختفاء والمطاردة في الأيام الخمسة من 6 - 11 أيلول / سبتمبر 2021، لم توثَّق في هذه الدراسة." نهاية البيان.

هذه كلها تفاصيل يا زكريا، أما قرار اللجنة، فهو قرارك الذي كتبته بقدمك في المطاردة، مطارَداً، ومطارِداً. وقرارك الذي نتشرف بالنطق فيه كلجنة إشراف على رسالتك الماجستير: "الصياد والتنين: المطاردة في التجربة الفلسطينية، 1968 - 2018"، هو نجاحك في الماجستير بامتياز عالٍ في الممارسة، ونجاح منقطع النظير في النظرية، وهذا نجاح لفلسطين، للكلمة المقاتلة، وللبندقية الكلمة المقاتلة... فسلام عليك يوم ولدت، ويوم قاتلت، ويوم طوردت، ويوم طارَدت، ويوم أُسرت، ويوم خرجتَ من نفق الحرية في بيسان المحتلة، ويوم تبعث حُرّاً.

قراءة أولية في "الصياد والتنين"

جمال ضاهر

يرغب زكريا زبيدي، في بحثه، أولاً، بتبيين كيف أن الصياد، ويرمز عنده إلى المستعمِر، يجهد ليس ليأكل، بل ليقضي على حياة، وكيف أن التنين، ويرمز عنده إلى المستعمَر المطارَد، ليس فريسة. وهذا على عكس الفهم السائد. ويرغب، ثانياً، بمَوْضعة المطارد الفلسطيني في حركة تاريخ نضال الشعوب ضد مستعمريها، من ناحية، وبتمييزه عن مستعْمِره من حيث المنظومة الأخلاقية التي يأخذ بها في نضاله، من ناحية أخرى. يعتمد في ذلك، بين الأشياء، على قصته الشخصية، على سرده القصصي للتجربة الخاصة به، جاعلاً منها حالة ممثلة. وفي هذا توظيف للسرد القصصي لما فيه من خصائص وإمكانات، لتبيين ما لا يبيَّن بلغة العلم.

أبيِّن الخط الناظم لبحثه بالوقوف على المفاهيم المشكِّلة للمعاني عنده، وأبدأ بالقول: إن بحثه، في حركة فصوله، إنما هو بناء للمعاني الخاصة بمفهوم المطاردة، في السياق الاستعماري، بالعلاقة مع جهتَيها المتصارعتين، المطارِد والمطارَد، لتأخذ كل جهة منهما معناها معكوساً عمّا هو في الأدبيات المتداولة، الأمر الذي سيكون له إسقاطاته على تحديد معنى المطاردة.

يستهل بحثه بالحديث عن صورة القديس جريس والتنين، وبتوضيح المعاني المتضمنة فيها. يقول: نشأ الأطفال الفلسطينيون، بمَن فيهم الباحث في هذه الدراسة، في طفولتهم على صورة أيقونية للقديس جريس الفلسطيني (ويُعرف بالخضر) فارساً على ظهر حصانه، وهو يسدد الرمح لفم التنين لكي ينقذ العروس الجميلة. وفيما بعد فهمنا أن رمزية هذه الأيقونة المستمدة من المخيلة الدينية الإنجيلية في تراثنا الفلسطيني تكمن في انتصار الإيمان الخيّر المتمثل بالخضر على الوثنية الشريرة المتمثلة بالتنين.

ثم، بعد أن يوضح المعاني المتضمنة في صورة القديس جريس ورمحه والتنين، ينوّه إلى أن المعاني هذه لم تتغير حتى اليوم هذا، عندنا نحن المستعمَرين كما عند المستعمِر أبداً، الأبيض، مستعيناً بعبارتين لفيلسوفَين، عُقدتين رئيسيتين في حركة تاريخ الفلسفة الغربية: نيتشه وسارتر. تقول العبارة الأولى: إن الصياد حين يلاحق التنين يصير هو التنين. وتقول الثانية: إن ملاحقة التنين لا يجب أن تجعل أرواحنا تتوحش مثل التنين. الصياد، في المقولتين، هو الإنسان مهذب النفس، مرهف الحس، ناضج العقل والفكر، والتنين عكسه، متوحش الروح. وعلى الصياد، بالتالي، وفق الأدبيات هذه، أن يَحذر في تعامله مع التنين لئلا يصبح مثله.

غير أن زكريا زبيدي، حينما يخوض تجربة المطاردة، ويسمع تفاخر بعض مؤسسي وحدات المستعربين باللحظة التي تتواجه أعينهم بعين المطارَد، بأنها "لحظة الصياد"، يفهم أن الصيد، في الحديث عن استعمار، لا يكون من أجل المعيش، كما كانت الحال عند الهندي الأحمر، بل من أجل القتل، ورائحة الموت. فيقرر أن ينحاز إلى التنين، وأن يغير صورته الشرانية إلى صورة خيّرة؛ لأن التنين [هو] صاحب المكان والأقرب للطبيعة، وهو الخصم الوحيد الذي لا يقبل أن يكون فريسة للصياد الطارىء على الأرض والذي يعيش متطفلاً على دم الآخرين.

التمايز الأساس بين الصياد / المستعمِر / المطارِد، والتنين / المستعمَر / المطارَد، كما يُستدل عليه من قول زكريا زبيدي هذا، هو أن الأول، الصياد / المطارِد، طارىء على الأرض وهو الغريب عنها، مقابل الثاني، الملتصق بها ومالكها. وفي هذا إبراز لحالة المستعمِر الذهنية، مقابل حالة المستعمَر؛ الأول، الصياد / المطارِد، يتعامل مع نفسه على أنه كذلك؛ صياد / قاتل، وفي صيده / قتله تفاخر ومتعة، يسعى إلى تحقيقهما قدر ما يستطيع وتمكّنه الظروف. أمّا التنين / المطارَد، فلا يرى بنفسه فريسة، لا يرى بنفسه طريدة؛

المطاردة، في وعي المطارَد المقاوم، ليس جذرها "ط. ر. د"، والطريد ليس المطرود من الناس، ليس المُبعَد المبتعد؛ المطاردة هي جزء من فعل المقاومة، هي جزء، على حد تعبيره، من "العنف الثوري المقاوم"، فسمات المطارَد هي العناد والإصرار والمغامرة والتمرد.

نحن، إذاً، أمام المعاني معكوسة، تقطع تماماً مع أدبيات المستعمِر ومع منظوره، من جهة، وتؤسس لمنظور آخر تُرى الأشياء من خلاله مختلفة، من جهة أُخرى، يكون ضمنه المطارَد والمقاوم كلاً واحداً لا ينفصل، لا في الواقع ولا تحليلياً. فيصير على مَن يرغب أن يفهم حالة المطاردة، كما هي في حالة الاستعمار، أن ينظر إليها على أنها حالة تتركب من طرفين اثنين.. من فاعلين اثنين: الصياد؛ القاتل الذي يجتهد من أجل تحقيق الإبادة الكلية، كما فعل الأبيض مع الهندي الأحمر، وكما يفعل الصهيوني اليوم مع الفلسطيني. والتنين؛ المطارَد المقاوم، يقف أمام الصياد، وبينهما صراع على حالة وجود، ينسحب، ليس على الحاضر والمستقبل فحسب، بل وعلى الماضي أيضاً. ومن أجل التأكيد على فاعلية المطارَد في فعل المطاردة، يأتي زكريا زبيدي بأسماء من حركة تاريخ المقاومة الإنسانية، مثل تشي غيفارا الذي استمر في القتال حتى الموت، ومثل علي بن أبي طالب الذي نام في سرير الرسول ليُقتل مكانه، ومثل الحسين بن علي بن أبي طالب الذي خرج ليقاتل يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وهو على دراية بأنه سيُقتل، وقد قُتل. وباستحضاره للأمثلة هذه، فهو يقول: إن المطارَدة هي حالة مقاومة، وإن المطارَد، بالتالي، لا يركض هرباً أو خوفاً على حياته من الموت، بل مواجهة لعدوه المستعمِر، من أجل أن يتمكن من ضربه ومن إلحاق الأذى به مدة أطول. الأمر الذي يعبّر عنه بقوله إن المطاردة، عند المناضل الفلسطيني، هي حالة مستمرة ما دام الاحتلال.

زكريا زبيدي: المعرفة، الإدراك، وعبور العلامات

وليد الشرفا

تعيد أطروحة زبيدي السؤال الأزلي حول المعرفة بصفتها استيهاماً ظاهراتياً، وحالة عبور ذهنية للتاريخ، بداية من الأسطورة إلى الجماليات، وما تراكم عبر كل ذلك من اجتهاد علاماتي – سيميائي - متشابك ومعقد في قراءة وراثة الصدمات عبر التاريخ، ووراثة الفن – السرد - عبر الجماليات.

يعبر زبيدي التاريخ بوعي مسبق بالتأكيد وقرار مراقب ومرصود، لكنه يؤسس ظاهريته الجديدة بالعبور من الاستيهام أو التأمل، إلى إدراك أكثر "صدمية"، يتجاوز ترف التأمل وحوار الجماليات، التشكيل والحبكة الأسطورية وحتى سؤال الجدوى والحقيقة، إلى حوار تاريخي بالجسد أيضاً، وهو المكانية الروحية النفسية القابلة للتحقق.

يعني ذلك وفق تنظيرات غابت أو غُيّبت حول جدوى الجدوى دون إدراك جسدي، وبالتالي ما المعرفة خارج هذا الإدراك، إنها إمّا معرفة الزمن بالتأمل والتفلسف والتنظير، وإمّا معرفة مكانية تلتحم بالجسد الذي ينقل التأمل إلى الإدراك، إذ لا إدراك خارج الجسد، حسب المشروع التنظيري التعارضي لموريس ميرلوبونتي (Maurice Merleau-Ponty).

ضمن هذا الحقل، يعبر زبيدي التاريخ بتأريخ خاص: ذهني وجسدي، فهو ابن تصور فلسطيني تحرري، ويتخذ موقعاً وظيفياً فيه على مستوى المؤسسة، وعلى مستوى الجسد يعرف زبيدي جيداً إدراك ألم الإصابة والشظايا والنوم بجانب جثامين الشهداء، وحتى تدخين سيجارة من جيب الشهيد، ويعرف معنى وجع اليتم والانفصال الأبدي عن جسد الأم وروحها، ويعرف كيف ينتظر حول المفارق والأزقة والمنعطفات على طريقة سبارتاكوس. لقد اختبر جسد زبيدي المعرفة بكل حواسه ووضع قوانين معمدة بالمكابدة، فهو يعرف طعم التعذيب جيداً ومعنى الجوع ومعنى غياب الجسد عن بيت العزاء، في محاولة أخيرة لاستعادة الراحلين والإمساك بهم عبر الصور والمحافظة على بهائهم عبر باقات الورود. يعرف ذلك جيداً عند سماعه نبأ استشهاد المدرك الآخر داود زبيدي، الشهيد الأسير الجريح المختطف جثمانه، في إمعان العدو بسادية ألم الاستغراق والاستدراك.

عبر كل ذلك يؤسس زبيدي سيميائيته الخاصة، فهو يعبر العلامات بعقله كما يعبرها بجسده، ويعرف تزامنها وتعاقبها وتمثلها وتمثيلها، منذ التقسيم الأول للعلامة، فهو يردد الحب والوطن والألم كما نرددها، ولكنه عبر بها إلى الثانية، فهو يعرف الجرح والنزف، ويهتف للثورة مثلنا، لكنه عبر إلى المستوى "الصدمي" الإدراكي للعلامة، فهو له وطن باهظ ويعرف طعم اليتم ويعيش أجواء الرثاء خارج انتظار صفقات أو تصفيق المشيعين. وحده مع داود والعارضة وكممجي، يعرفون أن كلمة شهيد وجريح وأسير ومطارَد لا تتكرر على سبيل الرثاء والمديح، لقد تمثلوها وتحملت أجسادهم تشوهات القوة والسلاح، لكن زبيدي يعلمنا أن نكون بشراً سوياً، ففي فلسفة الإدراك فاقد الشي يعطيه.

لم يمنح زكريا الفعل وحده، فقد كان دليلي الإدراكي في مرحلة التقمص عندما كتبتُ روايتي الثالثة، في رصد الخيبة الفلسطينية بالعلاقة مع البطولة التراجيدية. في روايتي "ليتني كنت أعمى" التي رصدت سردياً وجمالياً التقاء البصيرة والعمى في بيروت وجنين ونابلس، كان زكريا جسد النص الذي منحني القدرة على صناعة الحكاية وإدراك المعركة في مخيم جنين عبر سرده الجسدي الإدراكي للمعركة كصانع وشريك فيها. لقد منح الجغرافيا روح التاريخ، ومنح الخيبة القدرة على الاستشراف، ما زال يبكي ما زال يعيش. شكراً لزكريا ولجسده ولروحه، شكراً للصديق عبد الرحيم الشيخ على تتبّع مسار الظاهراتية الجديدة.

رفيق الدرب والسلاح

مروان البرغوثي

ليس من السهل أن تكتب عن حالة نضالية وطنية رمزية، وفي نفس الوقت عن رفيق السلاح والخندق والكتائب، ورفيق القيد والزنزانة. وعندما تكتب عن الأخ والصديق ورفيق الدرب القائد الوطني الفتحاوي زكريا زبيدي، فإنك تستحضر سجلاً طويلاً وسيرة نضالية متميزة: فهو ليس نموذجاً نضالياً ورمزاً كفاحياً بذاته، بل أيضاً تجسد سيرته وسيرة أسرته نموذجاً فريداً من التضحية والفداء، فهو شقيق شهيدين كبيرين، وأمه شهيدة، وتعرّض جميع أفراد الأسرة طوال العقود الماضية للاعتقال والتعذيب، وقضوا سنوات طفولتهم وشبابهم الأول في الزنازين والسجون، حيث عاش معي عدة سنوات أشقاؤه يحيى وجبريل.

إن الأخ المناضل زكريا عبّر عن نموذج المناضل الذي يجسد الانتماء للوطن والقضية والشعب، فالانتماء ليس وظيفة، وإنما مهمة وطنية جوهرها التضحية والفداء، وزكريا نموذج منفرد: فهو القائد في الكتائب وقائدها في جنين، وهو المصاب والجريح، وهو المطارَد الذي كان عصياً على الاستعمار الصهيوني وأجهزته الاستخبارية، وهو الذي حُرم من التعليم، وعندما أُتيحت له الفرصة حصل على البكالوريوس وتقدّم للماجستير، وبذل جهداً فريداً في تطوير نفسه. والأهم بقي فدائياً شجاعاً، لم تُثنِه أو تغيره أية امتيازات، بل ظلت المقاومة للمستعمِر تسري في شرايين دمه، فحمل السلاح مرة أُخرى عندما كانت الغالبية الساحقة من الكوادر والقيادات تلهث وراء المصالح الذاتية والمكتسبات الصغيرة. وعندما اعتُقل زكريا مرة أُخرى، أظهر عزيمة وصموداً كبيرين. وفور دخوله السجن باشر في الإسهام في العملية الثقافية والتعليمية والنضالية، وأكد عزمه على إتمام مساقاته ورسالة الماجستير في جامعة بيرزيت رغم كل الظروف القاهرة، إلى أن جاءت عملية "نفق الحرية" التي عبّرت عن إرادة وشجاعة قلّ نظيرها من قِبَل الأخ زكريا وإخوانه الأبطال الذين رفضوا الاستسلام لواقع الأسر ونحتوا في الصخر وحفروا في التراب لبلوغ نور الحرية.

إن الأخ والصديق الحبيب، ورفيق الدرب والسلاح زكريا، نحت اسمه بين رموز الجيل الجديد ليكون الأبرز والأشجع، ليؤكد على مبدأ لطالما دعونا ولا زلنا ندعو له وهو مبدأ المقاومة الشاملة الذي يتقدم فيه القادة الشجعان الأوفياء الصفوف في معركة التحرر الوطني، ويرفضون العيش عبيداً لدى المستعمِرين ويُوفون بقسمهم لشعبهم ووطنهم. وأقول في هذه المناسبة، إن إرادة المقاومة للاستعمار الصهيوني تزداد قوة يوماً بعد يوم، وخصوصاً أننا نشهد أنه وبعد مئة عام ويزيد على الغزو الاستعماري الاستيطاني لبلادنا، أنه يعيش في قلب فلسطين من النهر إلى البحر سبعة ملايين من الفلسطينيين، وهم فاعل حضاري وثقافي وسياسي واقتصادي وإنساني، وليسوا رقماً إحصائياً أو كمّاً ديموغرافياً، مقابل سبعة ملايين من اليهود. مع الإشارة إلى أن هناك سبعة ملايين فلسطيني في الشتات والمهجر وبلاد الاغتراب لا زالت تعيش فلسطين حية نابضة في قلوبهم وعقولهم ووجدانهم.

البحث عن السؤال الصحيح

وليد دقة

لم أتعرّف على زكريا زبيدي من قبل. كنت أعرفه كما عرفه الكثير من الفلسطينيين من خلال الإعلام الإسرائيلي، أو من خلال ما كان يرشح لنا من الإعلام الفلسطيني غير الرسمي -الشائعات، وربما الوشاية، على مواقع التواصل الاجتماعي، التي غالباً كانت تعلّق إمّا على تقرير نشره الإعلام الإسرائيلي، أو على خبر اعتقاله من قبل السلطة الفلسطينية. وإذا كان الإعلام الإسرائيلي هدفه شيطنه زكريا، فإن الشائعات الفلسطينية، وغالباً ما كانت شائعات موجهة ومدروسة، قد حولته إلى كاريكاتور لرجل خارج عن القانون. وبين هاتين الصورتين، أطل عليّ أبو محمد مبتسماً في قسم "4" جلبوع، زائراً. وبعد بضع دقائق من لقائنا، استطاع أن يبدد صورته المنمّطة، وأن يستبدلها في ذهني وأذهان الأسرى المستمعين إليه بصورة المثقف المشتبك. وأصبحت صداقتي له ليس مكسباً فحسب، وإنما من أهم الصداقات التي كوّنتها على مدار الـ 36 عاماً داخل الأسر.

أول ما لفتني هو قدرة زكريا على قصّ حكاية، مهما كانت بسيطة، بأسلوب مشوّق ومتغير دائماً بحيث تتلاءم مفرداتها والتقديم والتأخير فيها وطبيعة جمهور المستمعين. فيجعلك مشدوداً له وتنتظر بلهفة الجملة اللاحقة التي سينطق بها. هذه الميزة، وهي كاريزما قيادية، تحمل في طيّاتها قدرة أهم يمتلكها زكريا، وهي التحرك دون تكلّف أو تصنّع، من المجرد إلى الحسّي، وبالعكس. وهو الذي اعتقدته في البداية غارقاً في الحسّي يمقت النظري والمنظرين، أظهر قدرة جيدة على تجريد تجربته وتقديمها لا بصفتها تجربة فرد فحسب، وإنما تجربة جماعة: مقاتلين، مخيم، وشعب. قلة من بين المناضلين ممّن حملوا السلاح مالوا نحو التسلح بالكلمة، وزكريا فعل ذلك، لا اعتقاداً منه بأن السلاح قد انتهى دوره، وإنما أيقن، ومن عمق تجربته النضالية، ضرورة الارتقاء بالسلاح من موقع القوة إلى موقع القدرة.

إن بحثه "الصياد والتنين: المطاردة في التجربة الفلسطينية، 1968 - 2018"، هو محاولة منه للإسهام في مراكمة التجربة في هذا الاتجاه، اتجاه امتلاك القدرة. وإذا كانت القدرة ليست غاية، وإنما أداة، فقد أحسست من خلال نقاشاتي له بعمق قناعته بأن الحرية هي القيمة بأل التعريف، فهو القادم من مسرح الحرية طفلاً، ثم شاباً، وقد تتلمذ على هذه القيمة على يدي أستاذه وصديقه جوليانو مير خميس الذي دفع حياته ثمناً بغية تحقيقها. أن تكون أخاً لشهيد، وابناً لشهيدة، ورغم ذلك أن تبقى قادراً على أن تحافظ بأن ترى عدوك ليس من خلال المهداف، فأنت تملك بوصلة أخلاقية لا يمكن حرفها، وأن تحمل سلاحاً وتبقيه نظيفاً دون أن يسكرك الإحساس بالقوة، فهذا فهم عميق للعلاقة الجدلية، بين قيم الحرية وأهداف التحرر.
هكذا هو زكريا زبيدي الذي حاورته، وناقشته، وناقشنا سوياً عشرات الدراسات والكتب، ليس بحثاً عن الإجابة، وإنما عن السؤال الصحيح.

حين يكتب الفدائي

إلياس خوري

في سيرة "التنين والصياد" التي تشكل متن أطروحة الماجستير التي تناقَش اليوم في جامعة بيرزيت، يكتب زكريا زبيدي كلاماً يقع تحت الكلام. اللغة لا تتسع لكل هذا النور الذي ينفجر كالماء من جوف التجربة، فيصير الفدائي ملح الأرض، ويرسم صورته بالكلمة التي كانت في البدء فعلاً. الكلمة – الفعل تعيدنا إلى أول اللغة، فحين يتكلم الفدائي، تصير اللغة جديدة ومشعّة، لأنها تجسد الفعل، وتتشكل به.

يعيدنا زكريا زبيدي إلى كلام الفدائيين. كلام التفاني والشجاعة والحلم، وإلى المعنى الأخلاقي الذي تجسده كلمة فدائي حين تستعيد معناها. هكذا تعرفت إليه من خلال صديقنا المشترك جوليانو مير خميس. فبعد لقائي القصير بزكريا في فيلم "أولاد أرنا"، اتخذت علاقتنا شكل حوارات هاتفية متقطعة، لكنها في كل مرة كانت تعيدنا إلى مخيم جنين الذي صار مسرحاً للحرية والبطولة والموت.

لم أكن أدري حينها، بأن زكريا ورفاقه يخبئون في أضلعهم ووجدانهم، قلقاً ثقافياً، ورغبة في تحويل تجربتهم إلى رؤية فكرية. هذا ما قام به جمال حويل في كتابه / أطروحته: "معركة مخيم جنين الكبرى 2002، التاريخ الحي"، وهذا ما يقوم به اليوم زكريا زبيدي الذي حفر نفقاً تحت الكلمات، قبل أن يحفر مع رفاقه نفق الحرية في سجن جلبوع.

يكتب زكريا تجربته كمطارَد ومقاوم وفدائي، فيعيد لكلمة فدائي معناها. الفدائي يحوّل تجربته النضالية إلى فعل ثقافي، تماماً كما فعل باسل الأعرج الذي حوّل موقعه كمثقف إلى فعل نضالي.

منذ متى؟ منذ عبد الرحيم محمود وغسان كنفاني وكمال ناصر ومحمود الهمشري ووائل زعيتر وعز الدين قلق وماجد أبو شرار، اكتشف المثقفون أن طريق ثقافة الحرية تقود إلى الممارسة النضالية، وبذا أزالوا الفرق بين صورة المثقف وصورة الفدائي، حين قادتهم الكلمات إلى موتهم المُحيي.

لا أدري من أين أتى زكريا بهذه الإرادة والمثابرة كي ينجز أطروحته في السجن، لكن ما صرت أعرفه هو أن الحركة الأسيرة تخبّئ في عتمة السجن والأسر تجربة نضالية وثقافية هي الأكثر نقاء وثباتاً وإبداعاً. فمن بين صفوف الأسرى تولد قيادات جديدة للمقاومة، وتتشكل أوجه جديدة للثقافة الفلسطينية.

وأنا لا أستطيع أن أفي أساتذته بكلام يعبّر عن مدى تقديري وإعجابي بعملهم في ظرف مستحيل.

هذه الأطروحة الناقصة، التي تغيب عنها بسبب ظروف القمع تجربة نفق الحرية في جلبوع، أخذتني إلى المعنى العميق للثقافة، وإلى الدور الريادي الذي تستطيع الجامعات الفلسطينية التي تعيش تحت وطأة احتلال وحشي أن تلعبه، بصفتها جسراً للتواصل بين العمل الأكاديمي والرؤية الخلاقة والمبدعة التي تصنعها المقاومة.

بعد تجربة أدب المقاومة التي رسمت آفاق الوعي الجديد، وبعد رياح التغيير في الفنون التشكيلية والمسرح والسينما، تولد اليوم أكاديميا مقاومة تؤسس لفعل فكري وثقافي وبحثي جديد.

من هنا، من بيروت المحاصرة بالدمار الروحي والأخلاقي، نكتشف في هذه الأطروحة - السيرة بأن الحياة تتجدد بمَن يقاومون دفاعاً عن الحياة. تحية إلى زكريا زبيدي، وإلى زملائه القدامى - الجدد في هذا الصرح الأكاديمي الكبير.

ف

مسرح نسيب عزيز شاهين
NASEEB AZEEZ SHAHEEN AUDITORIUM
الوفاء للحر
الصياد والقتيل

שישה אסירים בטחוניים נמלטו מכלא גלבוע
אחד הנמלטים - המחבל זכריה זבידי, מפקד גדודי אל אקצה בג'נין

جامعة بيرزيت
BIRZEIT UNIVERSITY

كلية الآداب

الدراسات العليا

14 بيرزيت ☎(02)2982004 (02) 2982981

تقرير لجنة مناقشة رسالة الماجستير

اسم الطالب/ة نرمين محمد عبد الحميد زعبي الرقم الجامعي : 1175061

البرنامج : الماجستير في الدراسات العربية المعاصرة

عنوان رسالة الماجستير (باللغة العربية) :
الصياد والتنين: الهاربة في الرواية الفلسطينية 1968 - 2018

عنوان رسالة الماجستير (باللغة الانجليزية): The Hunter and the Dragon: Fugitivity in the Palestinian Condition 1968-2018

قرار اللجنة :

لقد ناقش الطالب/ة المذكور أعلاه رسالته بتاريخ 2 حزيران 2022 ، وقد كان تقدير الرسالة على النحو التالي :

{✓} ناجح

{ } ناجح بشرط التعديل

{ } راسب

وقد طلبت لجنة المناقشة التعديلات التالية:

1.
2.
3.
4.
5.
6.

رئيس اللجنة (المشرف): عبد الحميد السيد التوقيع: عبد الحميد السيد التاريخ: 2022/6/2

عضو اللجنة: نجلاء ضاهر التوقيع: نجلاء ضاهر التاريخ : 2 حزيران 2022

عضو اللجنة: وليد سيف التوقيع: وليد سيف التاريخ: ٢-٦-٢٠٢٢

عضو اللجنة: _____ التوقيع: _____ التاريخ : _____

نسخة : ( ) مكتب التسجيل ( ) دراسات عليا ( ) رئيس الدائرة/البرنامج

الفصل الأول: تحديدات منهجيّة

1.1 تمهيد الدراسة

مرَّ النضال الوطني الفلسطيني منذ بدء الغزو الاستعماري لفلسطين في العام 1905 بمراحل نضالية ثورية أفرزت مظاهر مختلفة وأشكال مقاومة متجددة. وقد أوجدت المقاومة الفلسطينية، منذ أن بدأت نضالها ضد الاستعمار الانتدابي البريطاني، ومن بعده الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، وحتى في ظل الحكمين الأردني للضفة الغربية، والمصري لقطاع غزة منذ نكبة العام 1948 وحتى نكسة العام 1967، ظاهرةً مهمة تستحق الدراسة والبحث، ألا وهي "ظاهرة "المطارَدين." ومع أن هذه الظاهرة ليست حكراً على الشعب الفلسطيني ومناضليه، إلا أن فلسفة المُطارَد والمُطارِد تختلف عن غيرها من التجارب باعتبار أن الاستعمار الاستيطاني الصهيوني لفلسطين جاء بهدف إحلال شعب محلَّ شعب آخر، واستبدال ثقافة بثقافة، ومحو تاريخ بتاريخ.

منذ بداية هذه الظاهرة، مارس المطارَدون أساليب عديدة في التخفي من حيث عدم الظهور أمام المحتل، وذلك باللجوء إلى الجبال، والانخراط أحياناً في صفوف الناس في المجتمع بأسماء وأشكال مختلفة. ولكن مع مرور الزمن، وما شهدته فلسطين من تحولات سياسية وأمنية، ضاقت الأرض المحتلة بالمطارَدين من رجال المقاومة الفلسطينية ونسائها، ولاسيما بعد أن اكتسب الاحتلال الإسرائيلي خبرة بوسائل المقاومة الفلسطينية، وبعد أن زرع عدداً كبيراً من العملاء في صفوف الشعب الفلسطيني، خاصة وأن الجغرافيا الفلسطينية لا تسمح للمقاومين بانتهاج حرب العصابات، ذلك أن الأراضي الفلسطينية ذات مساحة جغرافية صغيرة، وهناك اتفاقيات سياسية ترتبت عليها عقيدة أمنية إسرائيلية وأخرى فلسطينية على المستوى الرسمي. كما أن فلسطين (تحديداً الجزء المحتل منها في العام 1967) تخلو من الغابات والأدغال التي استخدمت كملاذ للمقاومين في تجارب استعمارية شبيهة. ورغم ذلك استطاع المطارَدون النجاح في الاختفاء.

وقد تعاظمت هذه الظاهرة لتصبح أقرب ما تكون إلى عالم خاص أو مجتمع غير مرئي لمئات المطاردين في الضفة الغربية وقطاع غزة، وبأقل من ذلك في القدس وفي فلسطين المحتلة في العام 1948، وحتى في الشتات الفلسطيني العربي والعالمي. وقد كان همُّ المطارَدين لا ينصب على الاختفاء عن الاحتلال وعيونه ووكالاته الاستخبارية وحسب، بل أيضاً الاستمرار في مسيرتهم النضالية الثورية من حيث القيام بأعمال

المقاومة، وذلك بوضع الخطط العسكرية والأمنية التي من خلالها يشاغلون الاحتلال ويمارسون فعلهم على الأرض بالتوازي مع سرية وجودهم وأماكن اختبائهم.

من هنا، تستحق هذه الظاهرة الدراسة فعلاً، والتوقف عندها طويلاً، بعد أن أصبحت الجانب غير المرئي من نشاط المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الصهيوني. ولتحقيق الأهداف التي تصبو لها الدراسة، والتي سيرد تفصيلها لاحقاً في قسم المنهجية، تم تقسيمها إلى أربعة فصول: يتناول الفصل الأول الإطار المنهجي وتحديداته، والهيكلية العامة للدراسة، وأدبيات الدراسة حول المطاردة في التجربة الفلسطينية. فيما يستعرض الفصل الثاني المطاردة وثقافة المواجهة في الثقافة العالمية والعربية. أما الفصل الثالث، فيتناول المطاردة من منظور المطارَدين كما انعكست في المقابلات التي شملتها العينة البحثية. وأما قصة المطارَد والتجربة الشخصية لكاتب هذه الدراسة، فيتناولها الفصل الرابع بالسرد والتحليل، بعنوان: الصياد والتنين في جنين. فيما تقتصر الخاتمة على رأي الباحث بأن المطاردة هي تجربة ذات نهاية مفتوحة ما دام الصراع قائماً في فلسطين.

1.2 إشكالية الدراسة

رغم أن ظاهرة المطارَدة ليست مقتصرة على الشعب الفلسطيني ومناضليه، وكذلك أساليب النضال الوطني الفلسطيني التي تكررت عند العديد من الشعوب والأمم في حقب وشروط استعمارية مختلفة، إلا أن التجربة الفلسطينية في مسألة المطارَدة لها خصوصية تتمثل بمقاومة المشروع الاستعماري الصهيوني على الأرض الفلسطينية. فمنذ العام 1905 وحتى العام 2018، مرَّ النضال الوطني الفلسطيني بمراحل عديدة وكان لكل مرحلة حيثياتها وأساليبها الخاصة بالمطارَدة والمواجهة. وعلى ذلك، تسعى هذه الدراسة للإجابة على سؤال مركزي، مؤدَّاه: كيف شكَّلت التجربة الفلسطينية في المطاردة، وطرق وأساليب تحققها، نموذجاً خاصاً في مواجهة العدو الاستعماري الاستيطاني الصهيوني، مختلفاً عن بقية التجارب العالمية؟

ويتفرع عن هذه الإشكالية المركزية مجموعة من الأسئلة الفرعية، وهي: ما هو الإرث العالمي والإسلامي والعربي الذي استفادت منه تجربة المطاردة الفلسطينية واستلهمت بعض نماذجه؟ وما هي المراحل التاريخية التي مرت فيها تجربة المطاردة الوطنية الفلسطينية؟ وما هي الماهية التفصيلية لتجربة المطاردة الفلسطينية في مواجهة عنف المطارِد الصهيوني؟ وكيف يمكن استثمار نموذج المطاردة الفلسطينية في مواجهة آليات العنف الاستعماري الاستيطاني الصهيوني وتعميمها على التجارب الثورية الشبيهة في العالم؟

1.3 فرضية الدراسة

تفترض هذه الدراسة وجود تجربة مطاردة فلسطينية فريدة وغنية بأساليبها النضالية-الثورية وتختلف عن باقي التجارب التاريخية والعالمية رغم التقائها في العديد من النقاط، ولهذا يمكن الاستفادة من هذه التجربة لمواجهة العدو الصهيوني، وبالتالي تعميمها على التجارب الثورية الشبيهة في العالم التي لا زالت تعاني من استعمارات حداثية للشعوب الأصلانية.

1.4 أهمية الدراسة

تأتي أهمية هذه الدراسة في سياق تتبُّع استراتيجية المطارَدين وتقنياتهم العملانيَّة في التخفِّي ومقاومة المحتل. وكذلك دراسة هذه الظاهرة وتأثيرها على المناضلين وعائلاتهم والمجتمع المحيط، وذلك من أجل تعزيز الفهم الصحيح لهذه الظاهرة وكيفية تفاعلها مع المتغيرات الداخلية، وتحديداً مع المحتل الصهيوني. ويعزز هذه الأهمية ما يميز هذه الظاهرة من خصوصية في أوساط الشعب الفلسطيني لأكثر من سبب، تاريخياً وجغرافياً وثقافياً، الأمر الذي يستدعي أن نخصها بالدرس والتحليل. ومن ناحية أخرى، توثِّق هذه الدراسة مراحل نضالية مهمة من تاريخ الشعب الفلسطيني، وبخاصة أحداث كل من انتفاضة الحجارة عام 1987 وانتفاضة الأقصى العام 2000، والتحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية والمشهدية الكبيرة تجاه مسألة المطاردة بين هاتين الانتفاضتين وبعدهما، كما تستعرض التجربة الذاتية في المطاردة لكاتب الدراسة.

1.5 أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى تأصيل ظاهرة المطاردة في سياق النضال الوطني الفلسطيني ودراستها وتفسيرها في مسعى لفهم توجهاتها، ودوافعها، ومحدداتها من أجل إيجاد رؤيا علمية وعملية يُستفاد منها على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي، وذلك من خلال رصد وتحليل ردود الأفعال والمواقف للمُطارَد والمُطارِد في الفترة الممتدة بين الأعوام 1905-2018، مع تركيز خاص على تجربة المطارَدة بعد صدور الميثاق الوطني الفلسطيني وحتى اللحظة (1968-2018). كما وأن هذه الدراسة هي محاولة لفهم إلى أي حد كان نهج المطارَدين نابعاً من المتغيرات والمؤثرات ومن الولاءات والانتماءات الوطنية، وتغير استراتيجيات العدو

الصهيوني وتكتيكاته في محاولات قمع المقاومة الوطنية الفلسطينية، وبخاصة بعد تأسيس السلطة الفلسطينية في العام 1994.

1.6 منهجية الدراسة

يصعب تناول كامل المتغيرات والمؤثرات المحددة لظاهرة المطاردة، ولغايات تفسير مفهوم المطاردة على المستوى المحلي والعربي والعالمي، فإن الدراسة ستستخدم منهجاً هجيناً للمقاربات التحليلية لوصف ظاهرة المطاردة بالسياق المستعمَري الفلسطيني، وذلك من خلال رصد الوقائع السياسية والتاريخية وما انبثق عنها من تجارب في المطاردة، وتتبع ما صدر في هذا الموضوع من تصريحات ومواقف وقرارات سياسية، ودراسة ما أنتج من أدبيات وتحليلها، وتسليط الضوء على مسألة المطاردة ذاتها، وتحليل تأثيراتها وتداعياتها على المجتمع الفلسطيني.

هذا بالإضافة إلى تناول الجدل الواسع حول موقف "الأطراف" جميعها (مطارَد ومطارِد ومجتمع)، وذلك بناءً على المعطيات والمعلومات التي سيتم جمعها من المصادر والمراجع الأولية والثانوية المختلفة مثل: الإعلام، والأدبيات التي تعكس تجارب شخصية وتنظيمية، والمقابلات المعمقة مع مطارَدين وأسرى محررين، والكتب والمقالات. كما أن تجربة كاتب هذه الدراسة، بوصفه "مشاركاً (بأكثر من) الملاحظة" في العملية التاريخية للمطاردة، عبر تجربته الشخصية، ستكون أحد المصادر التي تبني عليها الدراسة استنتاجاتها النهائية، وبخاصة في الفصل الرابع منها.

وعلى ذلك، تناقش هده الدراسة المواد التالية وتحللها من أجل معالجة إشكالية الدراسة، وهي ثلاثة أنواع أساسية:

1. المواد التاريخية والنظرية التي تناولت الظاهرة، بما فيها من وثائق، وقوانين، وسير ذاتية وغيرية، فردية وجماعية.
2. مجموعة من المقابلات الشخصية مع مطارَدين فلسطينيين من كافة فصائل المقاومة في الفترة 1968-2018. ومرفق بهذا المقترح الموسع ملحق رقم (1) حول أسئلة المقابلة التي تشتمل على المراحل السبع للنضال، والمطاردة، والأسر، والتحرر. وملحق رقم (2) الذي يتضمن أسئلة المقابلات المفتوحة والمتخصصة بتجربة المطاردة على وجه التحديد، التي أجريت مع 26 مطارداً موزعين على الفئات التالية:

1. المطارَدون والمناضلون الذين عاصروا الانتفاضة الأولى 1987-1993.
2. المطارَدون والمناضلون الذين كانوا في فترة تطبيق اتفاقية أوسلو 1994-1999.
3. المطارَدون والمناضلون الذين عاصروا الانتفاضة الثانية 2000-2004.
4. المطارَدون والمناضلون في الفترة 2005-2018.

وقد استخدمت المعلومات المستقاة من هذه المقابلات في الفصل الثالث من الدراسة بشكل معمَّى، حفاظاً على خصوصية وسرِّية أصحابها (مع الاحتفاظ بها في سجل الباحث والبرنامج).

3. السيرة الذاتية للباحث من حيث كونه أحد المطارين خلال انتفاضتي الحجارة 1987 (ضمن مجموعات "الفهد الأسود")، والأقصى 2000 (أحد مؤسسي "كتائب شهداء الأقصى")، وبعدهما حتى العام 2018. وقد استخدمت المعلومات الخاصة بالسيرة الذاتية للباحث في صياغة الفصل الرابع، وهو فصل الخلاصات في هذه الدراسة.

وتحدَّد الدراسة زمانياً بالعام 1905، البداية الفعلية للاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين بعد المؤتمر الصهيوني السابع الذي ألغي فيه "مشروع أوغندا"، مروراً بالاستعمار الانتدابي البريطاني منذ العام 1922، ومن ثم المطارَدة العربية في الوجودين الأردني والمصري بعد نكبة العام 1948. لكن الدراسة تتخصص بصورة مركَّزة بفترة التحرر الوطني التي تلت تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية، وبخاصة بعد صدور الميثاق الوطني الفلسطيني في العام 1968، وحتى العام 2018، مع تركيز خاص على انتفاضة الحجارة 1987 وانتفاضة الأقصى 2000. وتحدَّد الدراسة مكانياً بفلسطين التاريخية، فيما تستثني الملاحقة والاغتيالات الصهيونية للفلسطينيين في الشتات العربي والعالمي.

1.7 ملاحظة نظرية حول الدراسة

تقوم هذه الدراسة على فهم عقيدة الأمن في حالة المطاردة في إطار دولة استعمارية لها عقيدتها الخاصة في أمنها القومي. وهذه العقيدة تنقسم إلى شقين: الأول، الأمن الشخصي (للمُطارَد)، والآخر، الأمن القومي للدولة (المُطارِد). وهذه العقيدة تفيد أن استراتيجية المطارَدين والمناضلين تتأثر بمدى فعالية أمن الدولة المطارِدة وأساليبها في حماية أمنها، وكذلك مدى الاستقرار الداخلي فيها. وترتكز هذه العقيدة على نقطة السيطرة الأمنية التي تصب في بوتقة الأمن القومي وربطها بسياسة الدولة الداخلية والخارجية، والسيطرة الأمنية بمعنى أنه لا توجد سلطة أعلى من الإبقاء على نفوذ الدولة وقوتها على الأرض، وتواجدها المؤثر في المجال المحلي والإقليمي والدولي، حتى ولو كانت إثارة الفوضى في محيطها تخدم أمنها القومي.

وبفحص مفهوم الأمن القومي وفق عاموس جوردن ووليم تيلور، يتبين أن مصطلح الأمن القومي ودخوله للسياسة كمحرك أساسي أخذ بالتبلور منذ أواسط القرن العشرين، وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية وفي فترة الحرب الباردة. ويؤيد هذا التوجه من حيث التحديد الزمني كل من جوزيف ناي وروبرت كيوهان.[1] ونلاحظ أن مفهوم الأمن القومي وعلاقته بالسياسة لم يوضع له تعريف محدَّد للأمن القومي، لكنه عموماً يتعلق بالحفاظ على وجود الدولة وقوميتها المميزة واستقلالها ووحدة أراضيها.

ولذا، فقد ظهرت مدرستان تُعنيان بنظرية الأمن القومي وأثره على توجه الدولة للدفاع عن أمنها وهما: الأولى، المدرسة الجيوسياسية التي تركزت على الجانب العسكري الذي يهدد أراضي الدولة ووحدتها القومية، وطبيعة الأخطار الداخلية والخارجية المحيطة بالدولة، أي أنها تركز على مفهوم القوة القادرة على التحكم في تصرف الأطراف الأخرى، وهي العنصر الأساس في تفسير العلاقات الدولية.[2] ومن ضمن مؤيدي هذه المقولة جون سباينيز الذي يحصر مفهوم القوة في القوة العسكرية وقدرة الأمة على حماية قيمها الداخلية من التهديدات الخارجية، ومثله بيركو فيتز و بوك، فيعرفانه بأنّه: "قابلية الدولة لحماية قيمها الداخلية من التهديدات الخارجية، "[3] هذا باعتبار أن المطارَدين والمناضلين هم تهديد خارجي (يقيم في الداخل) لدولة الاحتلال.

وأما المدرسة الأخرى، فهي المدرسة التنموية-الاقتصادية، وترى أن التهديد الداخلي أشد خطراً من التهديد الخارجي على الأمن القومي، وأن السياسات الداخلية تؤثر بشكل كبير على السياسة الخارجية، بحيث أن العوامل التنموية والاقتصادية تلعب دوراً كبيراً في تقرير السياسة الخارجية. ويقدم أصحاب هذه المدرسة نظرة أوسع لمجال الأمن القومي، يشمل أبعاداً اقتصادية واجتماعية وثقافية. وتقوم هذه المدرسة على ضمان أمن الموارد الحيوية والاستراتيجية والتنمية الاقتصادية. ومن مؤيدي هذه المدرسة لورانس كرانس وجوزيف ناي.[4]

---

[1] Robert O. Keohane and Joseph S. Nay, *Power and Interdependence* (Boston: Little and Company, 1977), p. 6.

[2] Hans J. Morgantau, *Politics among Nations: The Struggle for Power and Peace* (Alfred A. Konop, Sixth Ed, 1985), p. 11.

[3] Berowitz And P.G. Bock, *American National Security* (New York: Free Press, 1965), p. 15.

[4] عبد المنعم المشاط، **نظرية الأمن القومي العربي المعاصر** (القاهرة: دار الموقف العربي، 1989)، ص 17.

ومن هنا، يمكن القول إن فقدان الأمن الداخلي للدولة الصهيونية نتيجة لأعمال المقاومة الفلسطينية، ومن ضمنها نشاط المطارَدين و المناضلين، يؤثر سلباً على حالة الاستقرار الاقتصادي والتنمية في الدولة، لأن الاقتصاد مرتبط ارتباطاً وثيقاً باستقرار "الأوضاع الأمنية."

1.8 الصياد والتنين: المجاز المعكوس

نشأ الأطفال الفلسطينيون، بمن فيهم الباحث في هذه الدراسة، في طفولتهم على صورة أيقونية للقديس جريس الفلسطيني (ويعرف بالخضر)، فارساً على ظهر حصانه، وهو يسدد الرمح لفم التنين لكي ينقذ العروس الجميلة. وفيما بعد فهمنا أن رمزية هذه الأيقونة المستمدة من المخيلة الدينية الإنجيلية في تراثنا الفلسطيني تكمن في انتصار الإيمان الخيِّر المتمثل بالخضر على الوثنية الشريرة المتمثلة بالتنين. كما فهمنا أن هذه الأيقونة تمتد في التاريخ لحضارات أخرى ضاربة في القدم سواء شرقية كانت أو غربية. ومع الوقت، ومن باب التحبُّب صار مجاز القديس جريس أو الخضر يُطلَق على الفلسطيني الذي يصارع الاستعمار الصهيوني. حتى أنَّ العقيد معمر القذافي، الرئيس الليبي الراحل، كما أخبرني مشرفي، كان يلقِّب الراحل القائد جورج حبش بلقب "الخضر" لأنه من مواليد اللد.

ولكن مع بداية اطلاعنا على أدبيات المقاومة، وأخلاق الحرب، ناقشني مشرفي في عبارتين لفيلسوفين فرنسي وألماني (سارتر ونيتشه)، تقول "الصياد حين يلاحق التنين يصير هو التنين" وإن "ملاحقة التنين لا يجب أن تجعل أرواحنا تتوحش مثل التنين." والغريب أن كل هذا يعزز فكرة الشر المتأصل في التنين، والخير المتأصل في الصياد. ولكن، حين خضنا تجربة المطارَدة، والالتصاق بالأرض، وسمعنا تفاخر بعض مؤسسي وحدات المستعربين باللحظة التي تتواجه أعينهم بعين المطارَد، بأنها "لحظة الصياد" الذي تتواجه عينه بعين الفريسة، قررتُ أن أنحاز للتنين، وتغيير صورته الشرَّانية إلى صورة خيِّرة، لأنه صاحب المكان، والأقرب للطبيعة، وتراب الأرض، والأكثر أن يكون متماهياً معها، وهو الخصم الوحيد الذي لا يقبل أن يكون "فريسة" سهلة للصياد الطارئ على الأرض والذي يعيش متطفلاً على دم الآخرين. وهذه باختصار قصة المجاز المعكوس للتنين والصياد في هذا الدراسة، والذي يحتاج لاحقاً لتأطير أكثر تفصيلاً، لكن هذه الإشارة تكفي هنا للتمهيد لهذه الدراسة الأكاديمية.

1.9 أدبيات الدراسة-المطاردة في التجربة الفلسطينية

ابتداءً من الاحتلال العثماني لفلسطين، ومروراً بالانتداب الاستعماري البريطاني، وانتهاءً بالاحتلال الصهيوني (وما تخلل ذلك من وصاية أردنية على الضفة الغربية، ومصرية على قطاع غزة)، عمل الفلسطينيون على مقاومة الحكم الأجنبي، ومناورته بالكرّ والفرّ، وعمليات المطاردة.[5] وقد احتلت مغامرات المطارَدين جزءاً من المخيلة الشعبية من خلال الأغنية الشهيرة "حيِّد عن الجيشِ يا غبيشي" في فترة الانتداب الاستعماري البريطاني على فلسطين، والتي تحكي قصة الحب بين غبيشي ومحبوبته حسناء، وكيف كانت حسناء ترسل له الأخبار وتساعده في عمليات الرصد والمراقبة وتسهيل الاختفاء وتجنب الوقوع في قبضة العدو.[6] كما أشغلت عملية المطاردة والهروب الخيال السينمائي، فعملت الآلة الدعائية الإسرائيلية على إنتاج أفلام سينمائية، ووثائقية، ومسلسلات، مثل: "فوضى"، و"حرّاس الحافة"، و"المطارد رقم 1"، فيما أنتج الفلسطينيون كذلك أفلاماً حول الاختفاء والمطارَدة تروي حكايات مناضلين أسرى أو شهداء، مثل الأمير الأحمر-علي حسن سلامة، ويحيى عياش، وإبراهيم حامد، وعماد مغنية، وعماد عقل، وغيرهم.

وعليه، فهناك العديد من الدراسات من كتب ومقالات والتي تتناول الصراعات المسلحة أو حالات المطاردة للثوار والمناضلين، وهي أدبيات بلغات مختلفة منها العربية والإنجليزية، لكن في موضوع المطارَدين الفلسطينيين، فالمراجع شحيحة جداً، وسوف نسلط الضوء على الأدبيات التي كتبها مناضلون يروون معاناتهم في الاعتقال أو المطاردة. وفي هذا السياق، لا بدَّ من الإشارة إلى أن أدبيات المطاردة فلسطينياً

---

[5] للاطلاع على التواصل الفريد لأنظمة المطاردة والسجن في هذه الأنظمة، انظر: مجموعة مؤلفين، **موسوعة تجارب الأسرى الفلسطينيين والعرب** (القدس: جامعة القدس -مركز أبو جهاد لشؤون الحركة الأسيرة، 2014)؛ سمير حرب وآخرون، **أعراض مرضية: فترة الفيمابين ودوائر السلطة في حصون تيغارت** (رام الله: مطبوعات مشروع "أراض منقلبة"، بينالي الشارقة 13، 2017)؛ مصطفى كبها ووديع عواودة، **أسرى بلا حراب: المعتقلون الفلسطينيون والمعتقلات الإسرائيلية الأولى: 1948-1949** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2013)، ص. 1-102؛ نظمي الجعبة، "الشيخ حسن اللبدي: مشاهد من ذاكرة مفقودة،" **مجلة الدراسات الفلسطينية**، المجلد 18، العدد 72(2007)، ص. 70-79.

[6] للمزيد حول الوقائع التاريخية، ومنها المطاردة، في مسيرة المقاومة الفلسطينية، انظر: قسم الحاج، **الأغنية السياسية الفلسطينية: الملحمة الغنائية والرواية 1905-2015** (بيرزيت: جامعة بيرزيت. 2016)؛ قسم الحاج، "حظر التجول والإغلاقات العسكرية: اعتقال الزمكان الفلسطيني وتحريره، ص119-165، في: عبد الرحيم الشيخ (محرراً)، **مفهمة فلسطين الحديثة: نماذج من المعرفة التحررية** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2021). وانظر كذلك: معين بسيسو، **باجس أبو عطوان: عاش البطل، مات البطل** (بيروت: دار الفارابي، ط2، 2014)؛ باسل الأعرج، **وجدت أجوبتي** (بيروت: دار بيسان للنشر والتوزيع، 2018). انظر أيضاً: إيهاب محارمة، "صور الحب في التراث الفلسطيني: غبيشي وحسناء نموذجاً". نشر في 2017/2/2.

https://www.aljazeera.net/blogs/2017/2/2/%D8%B5%D9%88%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%A8-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B1%D8%A7%D8%AB-%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%84%D8%B3%D8%B7%D9%8A%D9%86%D9%8A-%D8%BA%D8%A8%D9%8A%D8%B4%D9%8A

مرتبطة بشكل وثيق بعمليات مقاومة مناضلي حركة التحرر الوطني الفلسطيني ضد الحركة الصهيونية ودولة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني "إسرائيل" في مختلف مراحل النضال 1905-2018. ولكن هذه الدراسة ستركز على الأدبيات المتعلقة بالمطارَدة بعد صدور الميثاق الوطني الفلسطيني في العام 1968، وتكريس الكفاح المسلح في البند التاسع من الميثاق كسبيل وحيد لتحرير فلسطين. ولذا، فإن الأدبيات ترتبط بشكل مباشر، كذلك، بعنف الصهيونية وتحديداً عنف الدولة الاستعماري والرد الفلسطيني في شكل العنف الثوري المقاوم الذي كانت المطاردة جزءاً منه.

ففي كتابة بلغة لجمهور غير عربي، يأتي كتاب "صدع في الزمن" للمؤلف رجا شحادة.[7] يتناول فيه الكاتب تاريخ المطارَدة لأحد المناضلين زمنَ الدولة العثمانية وهو خاله، وقد صدر الكتاب عن دار بروفايل المحدودة للنشر في بريطانيا، والكتاب باللغة الإنجليزية. وعلى امتداد هذه الصفحات، يروي شحادة حكاية خاله نجيب، الذي عاش أواخر العهد العثماني في فلسطين، وعمل في الصحافة، وكتب مقالات تدعو إلى الحرية وتنتقد مشاركة الإمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى. أثارت مواقف الخال الحالم بالحرية غضب السلطات العثمانية، التي أصدرت عليه حكما بالإعدام، وسعت للقبض عليه، فاضطر للهرب والتخفي لمدة ثلاث سنوات.

وعن مرحلة تالية، يتناول أحمد الأغواني في دراسته الجامعية "الصهيونية وعنف الفوضى: الاستشراق، الاستعمار الاستيطاني والمستعربين،"[8] ظاهرة المستعربين كواحدة من أبرز أدوات الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين، حيث وثَّق الأغواني بداية مسار الاستعراب منذ بداية موجات الهجرة والاستيطان في فلسطين في أوائل القرن العشرين ومع نشوء حركة "ها شومير هاتسعير [الحارس الشاب]." ومن خلال تتبع هذا المسار، قال الأغواني إن فهم طبيعة الاستعمار الاستيطاني في فلسطين ينبغي أن تكون بين عنف الفوضى وعنف الاستشراق. ولكن الجانب الأهم في هذه الدراسة هو دراستها العميقة لمفاهيم: العنف، الاستشراق، الاستعمار الاستيطاني، كمفاتيح تفسر الظاهرة، وتمكن من كتابة رواية أصلانية حول المستعربين، خاصة أن هذه المفاهيم شكلت السمات الأساسية الثابتة في تطورات وتحولات الاستعراب الصهيوني منذ بداية الاستيطان والهجرة أواخر القرن التاسع عشر، وحتى العام 2018، بالإضافة إلى دراسة الظاهرة من خلال تشكيلات المستعربين وتاريخ الاستعراب لدى العدو الصهيوني، الذي يمثِّل "الصياد"

[7] Raja Shehadeh, *A Rift in Time: Travels with My Ottoman Uncle* (London: Profile Books. 2010).

[8] أحمد الأغواني، **الصهيونية وعنف الفوضى: الاستشراق، الاستعمار الاستيطاني والمستعربين** (بيرزيت: جامعة بيرزيت، 2018).

في هذه الدراسة. ولما كانت تشكيلات المستعربين من أهم وحدات العدو في ملاحقة المطارَدين الفلسطينيين، فإن دراسة نشأتهم وتكوينهم تعتبر واحدة من أهم مهمات الباحث في شأن المطاردة.

وأما كتاب "فلسفة المواجهة وراء القضبان"، مجهول المؤلف ولكن المنسوب إلى المناضل والمنظِّر الفلسطيني أحمد قطامش،[9] فيعد من أعمق التجارب النضالية خلف القضبان الإسرائيلية وهو من منشورات دار الراية، حيث يضم الكتاب بين جنباته صفحات مليئة بالتجارب والخبرات النضالية على مستوى الاعتقال الداخلي أو مستوى المطاردة أو "الاستخفاء" كما يطلق عليها الكتاب، حيث ينظر المساهمون في الكتاب (وهم مناضلون مجهولون من داخل المعتقلات الصهيونية) إلى تجربة الاعتقال بأنها مصنع الرجال الثوار ومهد القوة لدى المناضلين، فبنظرهم "في المعتقل تتصارع الإرادات، إرادة الهدم حفاظا على بنيان الظلام، وإرادة البناء والإصرار على إضاءة الشموع". لهذا نجد أن هدف الكتاب الأول صقل إرادة المناضل وتقوية صموده في مقاومة الاحتلال مهما استخدم الأخير من أساليب ووسائل في التحقيق أو في ملاحقة المناضلين.

وفي كتاب "مقاومة الاعتقال" الذي شارك في تأليفه فلسطينيون ينفذون أحكاماً مؤبدة في صفوف الحركة الفلسطينية الأسيرة،[10] فقد ورد فيه تفاصيل عن مواجهة المحققين ومعاناة المعتقلين ذوي الأحكام الطويلة في السجون الإسرائيلية. ولكن الأهم من ذلك، هو القسم المختص بمقاومة الاعتقال، أي بتجنُّب الوقوع في قبضة العدو أثناء أداء واجب العمل الوطني، قبل الاضطرار إلى الاختفاء، وأثناء عملية الاختفاء نفسها. وقد شارك في تأليف الكتاب القيادي في حركة التحرير الوطني الفلسطيني-فتح مروان البرغوثي، والقيادي في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عاهد أبو غلمة، والقيادي في حركة المقاومة الإسلامية-حماس عبد الناصر عيسى. ويعتبر هذا الكتاب دليلاً وطنياً ثورياً يغطي كافة مراحل العمل الوطني المتعلق بالمطارَدة، والأسر، والتحرر.

يتناول الكتاب أساليب التحقيق المتبعة داخل السجون والتي تعتمد الترهيب والترغيب والضغط النفسي والعزل والسجن الانفرادي، كما يعرض سبل مواجهة المحققين و"سياسة الاستفزاز" التي تمارسها إدارة السجون الإسرائيلية، والآثار السلبية المترتبة على الاعتقال. وتعتقل إسرائيل اليوم حوالي خمسة آلاف فلسطيني، منهم حوالي 309 مضى على وجودهم في السجن أكثر من عشرين عاماً، أي قبل اتفاقية أوسلو

[9] أحمد قطامش، **فلسفة المواجهة وراء القضبان** (القدس: منشورات دار الراية، 1982).
[10] مروان البرغوثي وآخرون، **مقاومة الاعتقال** (رام الله: د. ن. 2011).

الموقعة بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل في 1993. كذلك يتعرض الكتاب في فصل خاص لآلية "تحرير الأسرى" في إشارة إلى أن عمليات التبادل هي الأجدى لإخراجهم من السجن. وقال المؤلفون في كتابهم إن "إطلاق سراح الأسرى بحاجة ماسة إلى فرض عملية تبادل أسرى مع إسرائيل، وعملية تبادل كهذه هي أمر ممكن وفي متناول اليد، إذا اتخذ القرار الحاسم وسخرت الإمكانات لذلك". ولكن الأهم من ذلك كله، أن الكتاب هو دليل "لمقاومة الاعتقال"، إذ يتحدث عن ضرورة حماية الذات من الاعتقال أولاً، في مرحلة النضال والمطاردة. أما الهدف الرئيس للكتاب، كما جاء في مقدمته، فهو تسليط الضوء على جريمة الاعتقال، وكشف مدى خطورتها على الشعب الفلسطيني، وكشف أساليب ووسائل وأهداف الاحتلال من وراء سياسة الاعتقال الواسعة. كما يقدم رؤية لأفضل الوسائل والأساليب الناجحة لمقاومة الاعتقال كجزء مهم في مسيرة مقاومة الاحتلال، وحماية بنية فصائل المقاومة ومجموعات المقاومة، كما يقدم شرحاً واضحاً عن وسائل وأساليب المخابرات الإسرائيلية، في جمع المعلومات، وفى مراقبة ومتابعة وملاحقة المناضلين والمجاهدين واعتقالهم.

ومن ناحية أخرى، فإن كتاب "حكاية صابر" يهدف إلى إبراز معاناة الأسير محمود عيسى الذي حكم عليه بثلاثة مؤبدات بعد أن تم اعتقاله ومطاردته طويلاً، ويعبر الكاتب عن معاناته التي هي بالأصل معاناة شعب بأكمله.[11] فيعتبر الكاتب مراحل نضاله هي مراحل انكسار الشعب الفلسطيني منذ النكبة ومروراً بالنكسة وما تلاها من فساد ونهب للثروات والتاريخ والأصالة، وصولاً إلى ثورة الحجارة التي أعلن فيها الرفض للظلم والظلام. وقد ترك الكاتب حكايته بلا خاتمة ليتخيلها القارئ من خلال اطلاعه على الواقع الاحتلالي المعاش. ومن المعلوم أن الأسير محمود عيسى قضى معظم محكوميته في الزنزانة الانفرادية بحجة الخطورة الكبرى على أمن إسرائيل، فهو آسر الجنود ومؤسس الخلايا رغم ذلك استطاع أن يسرب أوراق كتابه ليرى النور بينما هو لا يزال ينتظر هذا النور.

وكذلك يجد الباحث عن أدبيات المطاردة والسجن كتاب "أمير الظل مهندس على الطريق" للأسير عبد الله البرغوثي المحكوم عليه بـ 67 مؤبداً.[12] يبدأ الاسير كتابه بالرد على رسالة ابنته الكبرى لماذا تركها دون رجوع، ومن عمق المعاناة خط البرغوثي كتابه في ترنيمة أشبه بالسيرة الذاتية لمناضل عايش المطاردة وجحيم التحقيق وظلم الحكم والسجن الانفرادي. وقد امتاز كتاب البرغوثي هذا بأسلوبه البسيط الأقرب الى سرد

[11] محمود عيسى، **حكاية صابر** (بيروت: مؤسسة فلسطين للثقافة. 2012).
[12] عبد الله البرغوثي، **أمير الظل** (د.ن. 2012).

واضح لكل ما شاهده، وحاول أن يبتعد عن زخرفة الألفاظ والتعابير. وهذا الكتاب عبارة عن لوحة للمقاومة تبرز تفاصيلها في سيرة هذا المناضل الذي ما زال يقبع في عتمة السجن.

أما كتاب "ستائر العتمة" للمؤلف الأسير المحرر وليد الهودلي،[13] فيتناول تجربة التحقيق والاعتقال وظروف السجن ويستعرض أساليب التعذيب التي يواجهها الأسرى الفلسطينيون على يد المحققين الإسرائيلين أملاً في "سحب اعترافاتهم"، بدءاً من "غرف العصافير" التي يتم فيها خداع الأسير ووصولاً إلى عمليات الشبح المتواصلة والتي تتم عبر تقييد الأسير على كرسي لساعات طويلة. وكذلك تطرق الكاتب إلى أساليب اعتقال الأهل وتعذيبهم كوسيلة للضغط للاعتراف بما يمليه المحقق الاسرائيلي. طُبع الجزء الأول من الكتاب ثماني طبعات، وكذلك تحول هذا الكتاب إلى فلم دراما على يد المخرج محمد الكرمي.

أما كتاب "الرباعية الوطنية"، وهو تجربة أدبية ثورية تتكون من أربعة كتب متسلسلة، فيحتوي على تفاصيل تتعلق بالأسر والنضال والمطاردة في الوطن والشتات،[14] وهو للمؤلف الأسير المحرر رأفت حمدونة الذي كتبه في أثناء اعتقاله داخل السجون الإسرائيلية. يتحدث المؤلف في كتابه هذا عن المقاومة والحرية معبراً عن ذلك بلغته القوية التي حملت دلالات نضالية ذات أثر عميق في نفس الكاتب يسقطها على الواقع المعاصر، متمسكاً من خلال هذه الدلالات بالثوابت الوطنية مهما بلغت التضحيات. وقد استطاع الكاتب من خلال كتابه أن يحكي معركة المطارَدين في جنين عبر إبراز صمود المناضلين والمطارَدين. وقد تعرض كذلك لصمود الثوار في المخيمات داخل الوطن والشتات. وبطبيعة الحال، فقد كانت طفولته وشبابه حاضرين في مشهد المقاومة والنضال.

وأما كتاب " على جناح الدم" للأسير المحرر شعبان حسونة، فيعتبر من أروع ما كتب عن تجربة الاستشهاد بعد المطاردة.[15] يحاكي الكاتب واقع الاستشهادي المطارَد بمشاهد مكتوبة غنية في تفاصيلها بالتشويق والإثارة و العاطفة والتأصيل لفكرة المقاومة لاسترداد الحق المسلوب. وقد نسج خيوط أفكاره في هذا الكتاب خلال 22 عاماً هي فترة مكوثه في ظلمة وظلم السجان. وقد حاز الكاتب على عضوية اتحاد الكتاب الفلسطينيين نتيجة لهذا العمل الفريد.

---

[13] وليد الهودلي، **ستائر العتمة** (رام الله: المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي. 2003).
[14] رأفت حمدونة، **الشتات-الحب، المقاومة، السجن، والحرية** (غزة: مؤسسة مهجة القدس. 2015).
[15] شعبان حسونة، **على جناح الدم**، (مخطوطة).

وكدليل إجرائي، يأتي كتاب "أمن المطارَد" للأسير محمد ناجي صبحة، وهو من المطارَدين السابقين المنتمين لحركة حماس.[16] يقسِّم الكاتب دراسته إلى ستة فصول مع قواعد عامة في آخر الكتاب، ففي الفصل الأول يتناول الإعداد المسبق للمطاردة من خلال ثلاثة عناوين رئيسية، وهي: الإعداد الجيد وسمات المطارَد المثالي ثم الطرق المناسبة لإعداد "المجاهدين" كما يسميهم الكاتب. أما الفصل الثاني، فيتطرق فيه إلى أمن الملجأ و أهم الصفات التي يجب أن تتوفر فيه و كيفية التعامل مع هذا الملجأ. وبكل اتقان ينتقل الكاتب إلى فصله الثالث الذي يعالج فيه قطع الخيوط الدالة على المطارد، فيتناول بعض الضوابط التي يجب على المطارد اتباعها لتعامله مع المحيط، والتي تضمن له قدراً أعلى من الأمن وتفويت الفرص على الاحتلال بالحصول على المعلومات و الأدلة التي تقوده للوصول إلى المطارَد. وفي الفصل الرابع، بعنوان "أمن السلاح،" يعتبر الكاتب أن السلاح مصدر أمن للمطارَد، وإذا لم يلتزم المطارَد بقواعد أمنه في التعامل مع السلاح، فإنه يصبح مصدر خطر يتعرض له ومدخلاً يوصل الاحتلال إليه. ولذا، يضع الكاتب في هذا الجانب قواعد هامة، منها التأكد من مصدر السلاح وأن يكون آمناً، وكذلك عملية فحصه واستلامه والحفاظ عليه.

وأما الفصل الخامس، فيستعرض أهم الوسائل التي تحفظ أمن تنقلات المطارَد و مقابلاته مع الأشخاص المختلفين. ويرى الكاتب أن المطارَد من اللحظة التي يخرج فيها من مكمنه يدخل في دائرة الخطر وذلك ما يستوجب منه اتباع إجراءات آمنة عديدة والتزام أعلى درجات الحذر. ومن هنا يوجِّه الكاتب عدة نصائح، منها: أن يقلل المطارَد من حركته قدر المستطاع وألا يخرج من مخبئه إلا للضرورة القصوى، وأن يتخذ إجراءات أمنية تراقب المحتل وتحركاته في منطقته. وأما الفصل الأخير، فيشرح فيه أمن العمليات القتالية من خلال ثلاثة محاور، وهي: الإجراءات قبل التنفيذ وأثناء التنفيذ وبعد التنفيذ. ويعتقد الكاتب أن أمن العمليات هو من مسؤولية القائد الذي ينصحه بعدم المشاركة الميدانية، وإنما الإشراف فقط على سير هذه العمليات. وفي آخر كتابه، يضع المؤلف قواعد عامة للمطارَد، منها: منع الاختراق واتخاذ إجراءات وقائية، واليقظة التامة والدائمة لكل المستجدات، ويركز على ضرورة التمويه بحيث يعتبره علماً قائماً بذاته. وهنا، يخلص المؤلف إلى الهدف الأساسي من كتابه، وهو: نقل خبرته وتجاربه لإخوانه المطارَدين لأن الاحتلال لا يزال قائماً ومثله المقاومة والمطاردة.

أما دراسة جمال حويل، رفيق الدرب والبندقية والمطاردة، وهي عبارة عن رسالة ماجستير بعنوان "معركة مخيم جنين: التشكيل والأسطورة،" فهدفها معرفة الخصوصية التاريخية، والعسكرية، والسياسية لمعركة

[16] محمد ناجي صبحة، **أمن المطارد: حرب العصابات بين النظرية والتطبيق الفلسطيني** (دمشق:مؤسسة فلسطين للثقافة، 2011).

مخيم جنين في ربيع العام 2002 بما في ذلك تجربة المطارَدين في مرحلتي مجموعات "الفهد الأسود" خلال انتفاضة الحجارة التي انطلقت في العام 1987، و"كتائب شهداء الأقصى" في انتفاضة الأقصى التي اندلعت في العام 2000.[17] وقد هدفت الدراسة "إلى إزالة ما علق بتدوين تاريخ المعركة من أسطرة وتناقض تأريخي ناتج عن عدم امتلاك المصادر المناسبة، واختلاق بعضها." وفي الوقت ذاته يوضح حويل أن هذه الدراسة رغم كونها دراسة أكاديمية (رسالة ماجستير)، إلا أن كتابتها ليست لغرض أكاديمي بحت، وإن كانت في سياق أكاديمي بحت، "بل تأتي الكتابة في إطار تأمل المقاوِم، بين ضرورات التذكُّر وسياسات الذاكرة. بين من عاش التجربة، ومن يتألم منها، ومن يتأمل فيها ليخطو مع شعبه خطوة للأمام. وقد كان هناك ثلاث محطات أساسية تم من خلالها التوثيق والتدوين." وقد عالج الكاتب تجربته الشخصية في معركة مخيم جنين من خلال هذه الدراسة، وذلك من خلال تقسيمها إلى خمسة فصول سردية في معظمها، إذ حاول توثيق هذه المعركة من خلال سرد ما حصل، مع التركيز على الذاكرة والتأريخ الشفوي لهذا الحدث المغاير بكل المقاييس لتاريخ مخيم جنين.

ولعل كتاب "صدى القيد،" رغم عدم تخصصه في تجربة المطاردة، يعتبر واحداً من أهم الكتب في مسيرة النضال الوطني الفلسطيني التي تصف تجربة العزل، التي تتقاطع مع تجربة الاختفاء والمطارَدة من حيث أجوائها النفسية. والكتاب تجربة فريدة للمناضل والأسير أحمد سعدات، الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.[18] يتناول سعدات في هذا الكتاب تجربة العزل في سجون الاحتلال الإسرائيلي في سبعة فصول، يتحدث فيها عن الإطار التاريخي لسياسة العزل وكيف أصبح هذا النهج وكأنه تشريع إسرائيلي ممنهج لإجبار المناضلين على الاعتراف. وكل ما يقوم به الاحتلال من عزل وعقاب للمناضلين يتم تغطيته بطريقة قانونية ملتوية، رغم أن هذه الأعمال الاحتلالية تنافي مواد القانون الدولي الإنساني. وكذلك يضرب سعدات أمثلة ونماذج في الصمود داخل العزل لبعض المناضلين، ويوضح أسباب وعوامل ومقومات الصمود لهؤلاء المناضلين داخل العزل الاحتلالي، وفي الأثناء يأتي على بعض سير المطاردة والصمود قبل الاعتقال لهؤلاء الأسرى. ويخلص الكاتب إلى أن هدف الاحتلال من وراء سياسة العزل هو "إعادة تشكيل وعي الأفراد والمجموعات داخل الحركة الأسيرة لتعزيز الفردانية والغرق في مواجهة المشاكل الخاصة بالمعتقل والقسم، وتفكيك وحدة الحركة الأسيرة كمجموعة نضالية تواجه قمع السجان وقهره". ومع ذلك

[17] جمال حويل، **معركة مخيم جنين: التشكيل والأسطورة-نيسان 2002** (بيرزيت: جامعة بيرزيت، 2012). وقد صدرت الدراسة حديثاً في كتاب عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بتقديم للمناضل الأسير مروان البرغوثي. جمال حويل، **معركة مخيم جنين الكبرى 2002: التاريخ الحي** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2022) [المشرف].
[18] أحمد سعدات، **صدى القيد** (بيروت: دار الفارابي، 2017).

كله يرى سعدات أن الحركة الأسيرة أبدعت باكتشاف أساليب تواصل ومواجهة لهذه السياسة القمعية الاحتلالية.

ولعل من الجدير بالذكر الإشارة إلى أن تجربة المطاردة دخلت إلى المخيلة الأدبية للفلسطينيين، فصاغ العديد من الأسرى، الذين خاضوا تجربة المطاردة أعمالاً أدبية، كان منها ما هو مكرَّس بالكامل لتجربة المطاردة والاختفاء، مثل العمل الروائي اللافت للأسير المحرر وسام الرفيدي، وهو بعنوان: "الأقانيم الثلاثة."[19] أو الروايات التي تناولت تجربة الهروب من السجن، كالرواية الحديثة للأسير المحرر عصمت منصور، بعنوان: "الخزنة: رواية الحب والحرية،" والتي تستعرض تجارب التحرر الذاتي من السجون الصهيونية،[20] وكذلك مروية حمزة يونس، بعنوان: "الهروب من سجن الرملة"، والتي يوثِّق فيها تجاربه في تحرير نفسه من السجون الصهيونية في إحداثيات مكانية ثلاثة كبرى في حياته وتشكيل حريته، وهي: سجن عسقلان، والمستشفى، وسجن الرملة.[21] بالإضافة لذلك فقد نشر موقع باب الواد-دائرة سليمان الحلبي للدراسات الاستعمارية والتحرر المعرفي سلسلة من ثلاث حلقات حول موضوع الهروب من السجون الصهيونية فيه تاريخ حافل لهذه الحالة الخاصة جداً من المطارَدة.[22] وهناك أعمال زاوجت بين الواقع والمخيلة الأدبية، ككتاب "إوار النار" للمناضل الأسير ثائر حماد، والذي يروي فيه قصة عمليته البطولية في عيون الحرامية، وعدم تمكن القوات الصهيونية من اعتقاله إلا بعد عامين ونصف.[23]

ولعل من الواضح، بعد مراجعة هذه الأدبيات، التي تغطي أكثر من قرن من الزمن، أن هناك فجوة في البحث الأكاديمي لظاهرة المطاردة في صفوف المقاومين الفلسطينيين تتعلق بالتحديد برواية المطارَدين أنفسهم، وضمن بحث أكاديمي يعرض الظاهرة، ويحللها، ويفسرها، ويحاول تعميم نتائجها وخلاصاتها. وهذا ما عملت هذه الدراسة على وضعه هدفاً لها.

---

[19] وسام الرفيدي، **الأقانيم الثلاثة** (القدس: مركز الزهراء للدراسات والأبحاث. 1998).

[20] عصمت منصور، الخزنة: **رواية الحب والحرية** (رام الله: طباق للنشر والتوزيع. 2022).

[21] حمزة يونس، **الهروب من سجن الرملة** (الجزائر: دار أسامة، ط2، 1999).

[22] فريق التحرير (موقع باب الواد)، تاريخ مختصر للهروب من السجن في فلسطين-1. نشر بتاريخ 2017/04/19. https://babelwad.com/ar/فلسطين/houroub-men-elsejen/

فريق التحرير (موقع باب الواد)، تاريخ مختصر للهروب من السجن في فلسطين-2. نشر بتاريخ 2017/04/27. https://babelwad.com/ar/فلسطين/houroub-men-elsejen-part-2-3/

فريق التحرير (موقع باب الواد)، تاريخ مختصر للهروب من السجن في فلسطين-3. نشر بتاريخ 2017 /05/23. https://babelwad.com/ar/فلسطين/houroub_men_elsejen_3/

[23] ثائر حماد، **إوار النار: قصة بطل عملية عيون الحرامية** (رام الله: نادي الأسير الفلسطيني 2016)، وانظر كذلك: ثائر حماد، "مقابلة: قناص عملية "وادي الحرامية" ثائر حماد،" **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد 129(2022)، ص. 24-36. [المشرف].

الفصل الثاني: المطاردة وثقافة المواجهة

2.1 المطاردة في الثقافة العالمية

2.1.1 مفهوم المطاردة في الثقافة العالمية

ارتبط مفهوم المطاردة أو الملاحقة بالاستعمار أو الاحتلال وذلك عند الشعوب التي وقعت تحت نير الاستعمار، فأشعلت نار الثورات في صفوفها مطالبة بالحرية والاستقلال. لكن، يمكننا القول إن المطاردة ارتبطت، أيضاً، بالاضطهاد وقمع الآخر وسلب حقوقه أو قتله وملاحقة فكره أو ما يعرف عند بعض الشعوب العالمية بـ"مطاردة الاختلاف." ففي ظروف القمع والبطش من قبل المحتل أو المضطهِد أن يلجأ المضطهَد إلى مهرب المطاردة والسرية في العمل النضالي، وفي أحيان كثيرة يؤدي اختلال ميزان القوى إلى اللجوء للسرية والاختفاء، فالسرية وسيلة لحماية وضمان الوجود النضالي عند المطارَد كذلك من أجل حماية نشاطه المقاوم.[24]

وعلى ذلك، فالمطاردة الثورية مفهوم إنساني، استخدمته الشعوب التي طالبت أو لا تزال تطالب بحقوقها المشروعة، فالحرية وتقرير المصير حق أقرَّته الشرائع والقوانين والأعراف الدولية، والنضال عند الشعوب له ضوابطه وآدابه وثقافته وأخلاقه. والمطاردة، في مفهومها العام، هي ردة فعل ثورية واعية، ضد واقع مرفوض، أو غير مشروع، أو لمواجهة استبداد، أو استعباد أو ظلم أو تمييز أو احتلال... إلى آخره. فـ"التراث الثقافي الإنساني يزخر، بظواهر متنوعة من المقاومة، يتفاعل معها الناس. وترتبط قدرتها على تحقيق أهدافها، بدرجة احتضان المجتمع لها، وإدراكها السليم للتحديات التي تواجهها، وامتلاكها الوعي والرؤية المتماسكة والخلاقة، والبنية التنظيمية، والقيادة المؤمنة بقوة الفكرة المقاومة، والإرادة الواعية. وإمكانيات يقتضيها زمنها. ومهارات متراكمة في حشد الطاقات... وتتنوع صور المقاومة، عنفاً أو لا عنف، ولكل مقاومة خصوصياتها الوطنية والتاريخية، والتي تنبع من واقع مجتمعها، والسياقات الاجتماعية والسياسية التي تحيط بها، وطبيعة نشاطها وعملياتها، والنتائج المترتبة عليها."[25]

---

[24] أحمد قطامش، **في التنظيم الثوري السري** (فلسطين: مكتبة القدس العامة، 2011)، ص. 147.

[25] يوسف الحسن، " ثقافة المقاومة"، **جريدة الاتحاد**، 14 فبراير (2017). https://www.alittihad.ae/article/ تاريخ الزيارة 2018/11/20.

2.1.2 نماذج عالمية

2.1.2.1 تجربة الهنود الحمر

تم اختيار السكان الأصلين في أمريكا، أي "الهنود الحمر،" كنموذج عالمي في مقاومة المحتل الغازي، لما لهؤلاء من شبَه بالحالة الفلسطينية من حيث الاقتلاع والإبادة وإحلال شعب مكان شعب آخر، واستبدال لغة بلغة، واختلاق تاريخ محل تاريخ. فعندما جاء "القديسون الأوائل" إلى أرض "العالم الجديد-أمريكا"، أطلقوا عليها "إسرائيل" وأطلق عليها القائد الإنجليزي مورتون " كنعان الجديدة " تعبيراً عن روح فكرة أمريكا التي هي الفهم الإنجليزي التطبيقي لفكرة إسرائيل التاريخية،[26] ذلك أن تصورات العبرانيين القدامى ومفاهيمهم عن السماء و الأرض و الحياة والتاريخ زرعها هؤلاء المستعمرون الإنجليز في أمريكا التي أطلقوا عليها "أرض الميعاد" و"إسرائيل الله الجديدة" وغير ذلك من التسميات التي أطلقتها الصهيونية على أرض فلسطين. ومن هنا، استمد الغزاة الجدد "مبررات" إبادة الهنود الحمر عبر هذا التقمص التاريخي لاجتياح العبرانيين أرض كنعان، فكانوا يقتلون الهنود الحمر وهم على قناعة بأنهم عبرانيون فضَّلهم الله على العالمين، وأعطاهم تفويضاً بقتل الكنعانيين الجدد، فكانت تلك الإبادة للشعب الهندي الأصيل هي الإبادة الأكبر في التاريخ البشري.

إن هذا الربط بين مقاومة الشعب الهندي الأصلي للغزو الأنجلوساكسوني ومقاومة الشعب الفلسطيني للاحتلال الصهيوني، إنما تم إيراده لتوضيح الطبيعة الوحشية الواحدة لكلا الاحتلالين، فإبادة الشعب الهندي الأصلي انتقلت من أفكار عنصرية توراتية، مثل إبادة وترحيل و تشريد الشعب الفلسطيني من أرضه، كما أن أسس قيام المقاومة عند الهنود الحمر هي نفسها الأسس التي انبثقت منها روح المقاومة لدى الشعب الفلسطيني.

هناك الكثير من نماذج مقاومة السكان الأصليين للغزو الإنجليزي لأراضيهم، ونأخذ منها هنا الجزء اليسير على سبيل المثال لا الحصر. فمن أشهر المقاومين الأصليين، ما يعرف باسم " الثور الجالس،" وهو هندي أحمر من السكان الأصليين من قبيلة السو الغربية. وقد كان هذا القائد الرافض لواقع الاستعمار الجديد نموذجاً للمحارب القوي العنيد في الحق، ترأس قبيلته " الهنكبابا" وهو في العشرين من عمره في العام 1857، واتسم بعدم الخوف، والتشبث بالرأي، وعدم القابلية للاستسلام. و"عند التأمل في حياة هذا

[26] منير العكش، **حق التضحية بالآخر: أميركا والإبادة الجماعية** (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2002)، ص 10.

الزعيم، وما أبداه من تحمل ومثابرة وقوة، يتضح أن دروس الجاموس أثمرت ولم تخطئه، وإلى جانب هذه الصفات المتعلقة بالشجاعة، عُرف الثور الجالس باللطف والسخاء والتواضع، وبقدرته على التنبؤ بالحوادث، ما جعله ذا مكانة في قومه مبجلاً حيثما ذكر."[27]

وقد خاض هذا الثائر الهندي العديد من المعارك والثورات المسلحة ضد جيوش العدو المستعمِر على الأرض المغتصبة، وطورد ولوحق من قبل سلطات المستعمر الجديد، واستمرت مطاردة الجيوش له وللعديد من الزعماء الهنود المقاومين. وتحت ضغط المطاردة الساخنة، كما يفعل المحتل الصهيوني بالمقاومين الفلسطينيين، هرب الثائر إلى أرض أخرى وهي كندا، وقضى "الثور الجالس" سنوات عديدة في منفاه عن أرض وطنه، واشتاقت روحه للعودة إلى أرض أجداده. لكن صفاته العنيدة لم تكن لتتقبل الاعتقال أو الأسر، فقرر العودة حتى لو أدى ذلك لنشوب القتال من جديد مع المحتل. آنئذٍ، قاد هذا الثائر أتباعه، وعبر الحدود إلى وطنه الأم في العام 1881، واشتبك مع القوات الأمريكية عند حصن بافورد، لكن ضغط الجوع ومصير أبنائه وجماعته دفعته للاستسلام. وفي هذا يقول: "أستحق اهتمام الحكومة والأب الأعظم لكوني لم أتلقَ حتى الآن قبضة طعام من السلطات الأمريكية، لقد جئت واستسلمت لإرادة الحكومة ليس خضوعاً لرغبتي، بل لأن نسائي وأطفالي يجوعون. لقد كذب جميع البيض عليّ"[28].

وثمة نموذج آخر للعناد والثورة والكبرياء لدى هؤلاء القوم الأصليين من الهنود الحمر، وهو القائد جيرونيمو من قبيلة الأباتشي، وهي إحدى أشهر القبائل الهندية التي ناضلت ببسالة حتى النهاية. ولد جيرونيمو في العام 1829، فيما أصبح حالياً نيو-مكسيكو، وباعتباره من زعماء الأباتشي، فقد ورث كل تقاليد مقاومة الغزاة القادمين من العالم القديم. وقد بدأ المحارب الهندي في اكتساب سمعته من خلال هجمات جريئة على القوات المكسيكية التي أغارت على قريته وقتلت بعض أفراد عائلته فكان رده أن قتل أكبر عدد من الجنود المكسيكيين في هجماته المتكررة.[29]

وفي هذا الصدد، يقول رون جاكسون: "إنه بحلول العام 1872، قامت الحكومة الأمريكية بتجميع جيرونيمو والمئات من أفراد قبيلته في منطقة بولاية أريزونا، فيما عرف بعد ذلك باسم "محميات السكان الأصليين."

---

[27] محمد صوان، **الحروب من أجل المقدسات من أمريكا الاسرائيلية الى فلسطين الهندية الحمراء** (لندن: إي – كتب، 2015)، ص106.

[28] صوان، المصدر السابق، ص333.

[29] ويستكوت، كاثرين، " لماذا أطلق اسم زعيم الأباتشى "جيرونيمو" على عملية بن لادن" (2011)، http://www.bbc.com/arabic/worldnews تاريخ الزيارة 2018/12/3.

لكن بعد أربع سنوات، قاد جيرونيمو عدداً كبيراً من الأباتشي إلى منطقة جبال سييرا مادر التي اتخذها نقطة انطلاق لشن الغارات التي تستهدف أي شخص يقوده حظه العاثر للاقتراب من هذه المنطقة. ومنذ ذلك، اعتبر زعيم الأباتشي متمرداً، وأصبح ملاحقاً من الجيش الأمريكي الذي أرسل تعزيزات لاعتقاله وصل عددها أحياناً إلى خمسة آلاف جندي. وسبب جيرونيمو في مرات كثيرة الحرج للضباط والجنود الأمريكيين بنجاحه في الهروب منهم، حتى تمت الاستعانة ببعض عناصر الأباتشي المتعاونين مع القوات الأمريكية للإيقاع به عام 1886. لكن مع مرور الزمن، تحول إلى رمز تاريخي بأعماله الشجاعة ومهاراته في القتال والقفز التي جعلت منه ما يشبه بالأسطورة لدرجة أن وحدتين من قوات النخبة بالجيش الأمريكي تحملان اسمه."[30]

2.1.2.2 تجربة الأكراد

ينتمي عبد الله أوجلان لجيل الثوار العمالقة المتمسك بقضاياه الوطنية، وقد ظهر في بداية الستينيات من القرن الماضي، وذلك برفض الواقع والعمل على تغييره. وقد تأثر شباب إقليم كردستان بأفكار الحرية والتحرر التي انتشرت في تلك الفترة في جميع أرجاء العالم قبل اندلاع ثورات الشباب، المناصرة لقضايا التحرر في الجنوب العالمي، وخلالها وبعدها. وبذات الوقت كان الطلاب اليساريون الأكراد في الجامعات التركية ينظمون لقاءاتهم وتجمعاتهم من خلال بعض التنظيمات الثورية اليسارية مثل حزب العمال التركي الذي استقطب عدداً كبيراً من الشباب الأكراد المتلهفين للحرية والاستقلال.[31]

ولفهم أعمق للتاريخ النضالي لعبد الله أوجلان، الذي برز كزعيم للحركة التحررية الكردستانية، علينا أولاً فهم واقع الرفض التركي للاستقلال الكردي، الأمر الذي دفع الأكراد للثورة والنضال. فمنذ سيطرة كمال أتاتورك على مقاليد الحكم في تركيا، ومع توجهاته القمعية بحق الأكراد وطموحهم السياسي، شعر الأكراد أن قضيتهم أصبحت في مهب الريح، وأن حلم إقامة دولة مستقلة لهم أصبح بعيد المنال، فتفرق جمعهم، وتشتت أمرهم، وخرج قادتهم من قلب اسطنبول للمنافي أو تواروا في الجبال والوديان وبدأ العمل السري يظهر في نهجهم، وذلك لما لمسوه من الحكم الجديد الناكر لحقوقهم، وكذلك خوفهم من العنف الجسدي والقمع السياسي لهم.

---

[30] ويستكوت، كاثرين، المصدر السابق.

[31] رجائي فايد، **أوجلان الزعيم و القضية** (المكتبة الكردية، 2000)، ص104.

وتجدر الإشارة إلى أن الأكراد أنفسهم ساهموا في تفرق أمرهم حيث وجدت معارضة في صفوفهم خاصة القبائل الكردية التي عارضت إقامة دولة أرمنيّة وفق ما نصت عليه اتفاقية سيفر،[32] فكانوا بذلك في نفس الخندق مع الحكومة التركية الجديدة التي تُنكر اتفاقية سيفر بالأساس.[33] ومن الثابت أن سياسة النظام الكمالي بحق المسألة الكردية تنطلق من هدف استراتيجي في رسم السياسة التركية العامة وهو وحدة تركيا وعلى أساسه وُضع النظام الداخلي وعُدِّل الدستور التركي. وخلال السبعين عاماً المنصرمة، لجأ النظام التركي إلى استخدام القوة العسكرية في قمع الحركات القومية الكردية كأسلوب لمعالجة المشكلة الكردية التي ينكر وجودها أصلاً، علماً "أن جميع الدساتير التركية لم تنص على أية حقوق أو نص يميز الأكراد باعتبارهم قومية غير القومية التركية، وإنما اعتبرت الشعب التركي شعباً واحداً ليس فيه قوميات أخرى."[34]

في هذه الأثناء كان أوجلان طالباً جامعياً، وكان يتابع الأمور السياسية لبلاده بكل حرص وطني، وقد أخذت فكرة الحركة الكردية الخالصة تتبلور في فكره وتستحوذ على اهتمامه، وأخذ يناقش الشباب المحيطين به، وتشكلت مجموعة شبابية ذات علاقات قوية عقدت اجتماعها الأول في العام 1971. وفي تلك الأثناء، تم وضع أسس للثورة الكردستانية، حيث قام أوجلان بشرح أفكاره للمجموعة، وطلب منها أن تباشر نشاطاتها الثورية لتحقيق الأفكار التي تمت صياغتها بين أفراد المجموعة. ومع انقلاب الضباط التركي، شنَّت السلطات التركية حملة اعتقالات ومطاردة، وتم اعتقال أوجلان لمدة ستة أشهر، وبعد خروجه من السجن، وجد أنّه من الضروري إنشاء تنظيم يصعب تصفيته، وكانت الحركة الفيتنامية قدوته في ذلك. فرسم الخطوط العريضة لحركته ومن أهمها اعتبار إقليم كردستان وطناً مستعمَراً من قبل الآخرين، وأن الشعب الكردي له حق تقرير مصيره بنفسه.[35]

لقد كانت شخصية أوجلان مؤثرة وملهمة للشعب الكردي، فانتقل للعمل في أواسط الأكراد أنفسهم من قراهم ومدنهم، وأصبح رمزهم وقدوتهم. وفي هذا السياق، يصف أحد كوادر الحركة الكردية هذا التأثير بالقول: "تأثرت بكل كلمة قالها أوجلان خلال ثماني ساعات متواصلة، وما زالت آثار تلك الكلمات ماثلة في

---

[32] يصف العديد من المؤرخين والمتابعين للشأن التركي معاهدة "سيفر" بالمعاهدة الفريدة من نوعها من ناحية الدبلوماسية المعاصرة، حيث كانت بمثابة بروتوكول علاقات دولية لا أكثر، ولم تستجب منذ لحظة توقيعها للموقف العسكري – السياسي الفعلي الناشئ في الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى. ولم تصمد هذه المعاهدة إلا فترة زمنية محدودة تقدَّر بثلاث سنوات. من الملاحظ على هذه المعاهدة أنها حاولت أن تقسم المناطق التي كانت خاضعة للدولة العثمانية. ومن هذه المناطق، منطقة كردستان ذات الأغلبية الكردية. وتعتبر هذه المعاهدة محصلة للمؤتمرات السرية والعلنية التي انعقدت بين الحلفاء، لأنها جاءت تطبيقاً وتنفيذاً لأفكارها ومبادئها.

[33] غورغاس جوردي، **الحركة الكردية التركية في المنفى**، ترجمة جورج البطل (بيروت: دار الفارابي، 2013)، ص. 26.

[34] ناجي عواد سعد، **دراسات في المسألة القومية الكردية** (بيروت: الدار العربية للعلوم، 2005)، ص. 38.

[35] رجائي فايد، مصدر سبق ذكره، ص106.

ذاكرتي. لقد كانت بمثابة القوة التي جعلتني أقاوم السجن لمدة عشرة أعوام."[36] وبطبيعة الحال، أدت سياسة العنف السياسي التركي تجاه الأكراد ومطالبهم إلى توجه الأكراد نحو العمل المقاوم، خاصة بعد اشتداد هذه السياسة في العام 1978، حيث قامت تركيا بأكبر تصفية سياسية وجسدية للتوجهات السياسية الكردية على مستوى الأحزاب والهيئات، وبخاصة اتحاد نقابات العمال الكردي، حيث تم اعتقال قادته وتصفية وجوده. هذا عدا الاضطهاد الذي تعرّض له المثقفون ورجال السياسة الأكراد المطالبون بالحقوق القومية والمدافعون عن الوجود والهوية القومية الكردية. وقد دفع كل هذا الأكراد إلى تأسيس حزب ثوري مقاوم يجمعهم، وهو حزب العمال الكردستاني وتوجهه للعمل الثوري ضد الدولة التركية.[37]

ومع استمرار تنكُّر تركيا للحقوق الكردية في الحرية والاستقلال، ومع استقرار الحكم العلماني في الدولة التركية الحديثة، زاد عناد الأكراد على مطلبهم في تقرير مصيرهم وبضرورة الانفصال عن الدولة التركية، خاصة أن النزعة الانفصالية في الوعي الكردي لم تنبع من العدم بل نتيجة الممارسات القمعية للدولة التركية، التي رسخت عبر تراكمات سياسية ومجتمعية متعددة وخطوات قامت بها الدولة التركية منذ حكم مصطفى أتاتورك حيث فرض عليهم اللغة التركية وجعلها إجبارية وحرمهم من لغتهم الأصلية وكذلك حارب الزعامات العشائرية و قضى على أي مقاومة شعبية محلية تطالب بالانفصال.[38]

ولذا، فقد زادت جميع هذه الإجراءات عبد الله أوجلان وحزبه إصراراً على المقاومة، فقد تغلغل حزب العمال الكردستاني بين الفلاحين الفقراء محدداً هدفه في السعي لاستقلال المناطق الكردية. وفي 15 آب من العام 1984، شن الحزب حرباً شرسة في مناطق الأغلبية الكردية، جنوب وجنوب-شرق تركيا، ضد القوات التركية وضد الجماعات الإسلامية المعارضة له في الوسط الكردي، وضد عموم السكان في المدن التركية الكبرى، الأمر الذي جعل الدولة التركية تعلن الحزب كتنظيم إرهابي يقتل المدنيين.[39] مع أنه، وفي حقيقة الأمر، اعتبرت الدولة التركية الحزب حزباً إرهابياً منذ نشأته، واعتمدت القوة العسكرية للتعامل مع تمرده في جنوبي الدولة وجنوبيها الشرقي. ونتيجة لتصاعد المواجهة بين النظام التركي وحزب العمال الكردستاني، اتخذ الحزب قرار الانسحاب خارج تركيا أو ما أسماه (بالانفتاح على الخارج) واعتبره (انسحاباً اضطرارياً على أساس المقاومة والثورة). وكان الانسحاب على مرحلتين: الأولى، وعرفت (بالانسحاب النسبي)

---

[36] المصدر السابق، ص107.

[37] إبراهيم الداقوقي، **أكراد تركيا** (دمشق: دار المدى، 2003)، ص272.

[38] "أسباب ودوافع الانفصال لدى الأكراد" http://raaxadaguurka.blogspot.com/2016/09/blog-post_41.html تاريخ الزيارة 2017/7/15.

[39] "الدور المؤثر لحزب العمال الكردستاني في القضية الكردية في تركيا" http://raaxadaguurka.blogspot.com/2016/09/blog-post_4.html تاريخ الزيارة 2017/7/15.

الذي حصل نهاية العام 1979، وتحول فيما بعد إلى (انسحاب عام وضروري) مع مجيء حكومة 12 أيلول 1980 العسكرية، التي شنت هجوماً وضغطاً شديدين على مواقع وقيادة الحزب. وقد تأكد لدى قيادة الحزب عدم إمكانية الاستمرار في نشاطه داخل تركيا. وآنذاك، بدأ بتهريب كوادره إلى بعض أقطار الشرق الأوسط، مثل: سوريا ولبنان ودول أوروبية، وذلك من أجل ممارسة نشاطاتهم هناك في ظل أوضاع أكثر أمناً.[40]

ورغم كل هذه النضالات، تمكَّنت السلطات التركية من اعتقال القائد عبد الله أوجلان بعد مسيرة حافلة من المطاردات والملاحقات العسكرية والاستخباراتية، في 15 شباط 1999، حيث تم اختطافه أثناء تواجده في كينيا بعد ملاحقة استمرت سنوات طويلة من قبل الجيش التركي. وقد "وصل أوجلان إلى تركيا في اليوم التالي من اعتقاله مكبلاً بالأغلال، ليعد ذلك نصراً تاريخياً لتركيا جيشاً وحكومة وجهاز استخبارات. وبعد محاكمة لم تدم طويلاً، صدر حكم بإعدام أوجلان، لكن الضغوط الأوروبية جعلت السلطات التركية تخفف حكم الإعدام إلى حكم بالسجن المؤبد في سجن بجزيرة ايمرلي في بحر إيجة والذي يقضي فيه أوجلان فترة سجنه."[41] ومع ذلك، استمر تأثير أوجلان كرمز وقائد للشعب الكردي في إقليم كردستان، بشقيه التركي والعراقي، وهذا الأمر بدا واضحاً عندما قام الثوار الأكراد المسجونون، وهم بالمئات، بإضراب عن الطعام في جميع أنحاء تركيا حتى أشرفوا على الموت، فما كان من الحكومة التركية إلا أن استعانت بزعيمهم عبد الله أوجلان لإنهاء الإضراب. وقد وجَّه أوجلان خطاباً للسجناء أعلنوا على إثره إنهاء الإضراب، الأمر الذي كشف بوضوح عن مدى نفوذ الزعيم الكردي الذي حاولت تركيا أن تنهيه وتقصيه عن ساحة النضال والتأثير على جموع الشعب الكردي، وبخاصة على مقاوميه.

2.1.2.3 تجربة نمور التاميل

لقد جاء استقلال سريلانكا في العام 1948 محملاً بكثير من الأعباء والإشكالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ومن أجل فهم الصراع في سريلانكا، علينا أولاً فهم الجذور المعاصرة للحرب التي كانت وما زالت دائرة في هذا البلد الآسيوي الفقير والتي تسبب فيها، بشكل أساسي، الاستعمار البريطاني، كما تسبب

---

[40] سعيد ناجي، مصدر سبق ذكره، ص. 34.

[41] عبد الناصر سنكيبي، "مرور 12 عاما على اعتقال عبد الله أوجلان" (2011) http://www.bbc.com/arabic/middleeast تاريخ الزيارة 2018/12/1.

في صراعات دامية أخرى كثيرة في فلسطين، ولبنان، وقبرص، ودول جنوب شرق آسيا.[42] فبعيد الاستقلال حاولت الأغلبية السنهالية تقزيم والتقليل من شأن التاميل وعدم إشراكهم في إدارة وحكم البلاد. بل وحاول الحزب السريلانكي الحاكم سلب اللغة والثقافة لجماعات التاميل، وتقوية اللغة والحضور السريلانكي في الدولة والوظائف وجميع مفاصل المجتمع. وبطبيعة الحال، لم يرقَ هذا الأمر للأقلية التاميلية، فبدأت بوادر الصراع المسلح بصورته العنيفة، وبصورة غير مسبوقة، في العام 1983.[43]

ومنذ قيام حركة نمور التاميل، أخذت الطابع الانفصالي القومي عن الدولة السريلانكية، وسعت إلى إنشاء دولة مستقلة في السواحل الشمالية والشرقية لجزيرة سريلانكا-تاميل إيلام. ومن المعروف أن عبارة "نمور التاميل" أو "حركة نمور تحرير تاميل-إيلام" تطلق على حركة تأسست في العام 1976 في سريلانكا، وتسعى إلى انتزاع الاعتراف بحقوق أقلية التاميل، والتي تشكل حوالي 18 % من سكان سريلانكا الذين تهيمن عليهم الأغلبية السنهالية الهندوسية، وتتبنى حركة نمور التاميل التوجه اليساري الماركسي اللينيني.[44] وقد تخلل نضالها كل ما يمكن تصوره في حروب حركات المقاومة الوطنية ضد العدو، من حرب الغوار، والمطاردة، والاختفاء، وما إلى ذلك.

ومع نهاية العام 1986، صعد نجم القائد الثوري التاميلي فيلولاي برابهاركان قائداً لنمور تحرير التاميل دون منازع، حيث تكرست زعامته بعد أن قضى على معارضيه، ووحد صفوف حركته الثورية لمحاربة الدولة السريلانكية. ومنذ ذلك الحين، صب نمور التاميل كل تركيزهم على النضال ضد الدولة المركزية، وحققوا نجاحات كثيرة بسيطرتهم على مساحات واسعة من الأرض. وقد توسعت عمليات نمور التاميل ضد المسؤولين السريلانكيين، وتمثلت باغتيال حاكم منطقة جافنا في العام 1975 على يد مؤسس الحركة فلوبيلاي برابهاركان، واغتيال رئيس الوزراء الهندي راجيف غاندي في مدينة مدراس في العام 1992، واغتيال رئيس سريلانكا بريماداسا في العام 1993، بالإضافة إلى الهجوم على مطار كولومبو سنة 2001.[45] وقد استمر التمرد التاميلي، بقيادة برابهاركان، حتى عام 2009 حيث أعلن عن مقتله على يد الجيش السريلانكي، واعترف نمور التاميل في العام المذكور بهزيمتهم أمام الحكومة السريلانكية في حرب تعد الأطول في القارة الآسيوية.

---

[42] إدوارد سعيد، "جغرافيات محاصَرة، مشهديَّات متحارِبة" (تقديم وترجمة عبد الرحيم الشيخ)، **مجلة إضافات-المجلة العربية لعلم الاجتماع**، العددان 49-50 (2020)، ص. 70-86.

[43] كريس سميث، **السلام الهش في سريلانكا** (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث، 2008)، ص. 9.

[44] موسوعة الجزيرة العلمية، "نمور-التاميل" (2014) http://www.aljazeera.net/encyclopedia ، تاريخ الزيارة 2018/12/4.

[45] كريس سميث، مصدر سبق ذكره، ص11-15.

2.1.2.4تجربة جنوب أفريقيا

في الحالة الجنوب-أفريقية، كما في كل حالات المقاومة الوطنية ضد الاستعمار، أصبحت المقولة الشعرية للشاعر التونسي أبو القاسم الشابي "إذا الشعب يوماً أراد الحياة، فلا بدَّ أن يستجيب القدر" قاعدة تاريخية لانتصار المقاومة. ذلك أن الشعوب تبحث دائماً عمن يمسك لها بشعلة الثورة ويطلق صرخة التمرد على الظلم والظلَمة المحتلين لينير درب الحرية، حتى أصبح ذلك بمثابة سنَّة تاريخية ثابتة لمختلف الشعوب، تحديداً في الجنوب العالمي الذي ابتلي بالاستعمارات المتوالية. وهنا، نخوض في النموذج الجنوب-أفريقي مع قائد عظيم ورمز وطني وعالمي قاوم الظلم والعنصرية وعنجهية المحتل الأبيض، وهو نيلسون مانديلا، زعيم الكفاح العسكري والسلمي في جنوب أفريقيا. وعند استعراضنا لمسيرة مانديلا، نجد أن العديد من الأحكام صدرت ضده منذ تشبثه بالعمل السياسي والنضالي، حيث طورد ولوحق من قبل النظام العنصري الأبيض في جنوب أفريقيا، كما صدر بحقه حكماً بالسجن مدى الحياة. وبسبب تلك الأحكام الظالمة، قضى مانديلا وراء القضبان سبعة وعشرين عاماً، لكنه خرج بعدها رمزاً تاريخياً ليس لنضال جنوب أفريقيا ضد العنصرية البيضاء وحسب، وإنما لكل من يناضل ضد الأنظمة العنصرية والاستبدادية في العالم.[46]

ولد مانديلا في العام 1918 في منطقة ترانسكاي، وكان والده رئيساً لقبيلة التيمبو، وقد توفي والده ونيلسون لا يزال صغيراً، إلا أنه انتخب مكان والده، وبدأ إعداده لتولي المنصب. وقد مانديلا تلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة داخلية في العام 1930، و أكمل تعليمه حتى وصل إلى المرحلة الجامعية، والتحق بجامعة فورت هار، لكنه في العام 1940 فصل منها لاشتراكه بالإضرابات الطلابية، لكن ذلك لم يمنعه من استكمال دراسته الجامعية، حتى حصل على بكالوريوس الحقوق من جامعة ويتواتر ساند.[47] وقد انتمى مانديلا لجيل الثوار الأوائل ذوي الجينات التي تأصلت فيها الحرية وتغلغلت في تكوينهم الشخصي والنفسي، إذ كانوا ممن تهون عليهم الحياة ولا تهون عليهم كرامتهم، ولا يأبهون الموت أو قسوة السجن فداء لكرامة وحرية أوطانهم. ولذا، فقد أصبحت حياتهم أكثر اختلافاً عما سواهم من حيث رفض الاستسلام للظلم والخضوع للظالمين المحتلين. وقد كافح مانديلا باسم أمة كاملة عاشت تحت نير أكثر أشكال التمييز العنصري قسوة في العالم. ومع مجيئه إلى ساحة المواجهة، أصبح مانديلا أحد أهم رموز الحرية في التاريخ الإنساني، وتحديداً بعد أن

[46] محمد فتحي، **نيلسون مانديلا زعيم ثوار أفريقيا** (القاهرة: مكتبة جزيرة الورد، 2010)، ص. 5.
[47] محمد إسماعيل، **تجربة جنوب أفريقيا: نيلسون مانديلا و المصالحة الوطنية** (القاهرة: العربي للنشر، 2014)، ص. 117-118.

تحول لأشهر سجين وطني في القرن العشرين، باعتباره صاحب أطول فترة اعتقال في تلك الفترة في التاريخ السياسي المعاصر،[48] علماً أن كثيراً من الأسرى الفلسطينيين اليوم، كالأسير كريم يونس والأسير نائل البرغوثي، تجاوزوا هذا الرقم القياسي من حيث سنوات الأسر التي بلغت أكثر من أربعة عقود.

بدأ مانديلا في المعارضة السياسية لنظام الحكم في جنوب أفريقيا الذي كان بيَد الأقلية البيضاء، وذلك منذ العام 1942، حيث كان النظام العنصري يتنكر لجميع الحقوق السياسية والانتخابية، ويميز البيض عن السود في المعاملات الاجتماعية والاقتصادية. ومن هنا، انضم مانديلا للمؤتمر الوطني الأفريقي ليخوض نضالاً طويلاً ضد هذا النظام العنصري. وقد كان مانديلا في البداية يدعو إلى المقاومة السلمية غير المسلحة ضد سياسات التمييز العنصري، لكنه بعد إطلاق النار على المتظاهرين العزَّل في العام 1960، وإقرار قوانين تحظر الجماعات المناوئة للعنصرية، قرر، وبالتشاور مع قادة المؤتمر الوطني الأفريقي، فتح باب المقاومة المسلحة.[49]

في العام 1961، أصبح مانديلا قائداً للجناح العسكري للمؤتمر الأفريقي، وفي العام 1962، طورد مانديلا من قبل السلطات العنصرية، واختبأ في شقة سكنية صغيرة، وأصدر من مخبئه بياناً تضمن عبارات شديدة اللهجة ضد النظام العنصري هدد من خلاله باستعمال العنف ومعاودة الإضراب ما لم تستجب حكومة البيض لدعوته لإنهاء نظام الفصل العنصري. وقد أنهى مانديلا بيانه بأنه لن يغادر جنوب أفريقيا ولن يستسلم، وهو على استعداد أن يموت في سبيل تحرير الوطن واستقلال الشعب الجنوب-أفريقي. وقد ظل مانديلا مطارداً متخفياً متنقلاً بين المناطق المختلفة دون أن يُعثر عليه. لم يهدأ نشاطه الحركي النضالي، ولكن في أواخر العام 1962، ونتيجة لجهود استخباراتية مكثفة، تم اعتقال مانديلا، وحكم بخمس سنوات بتهمة السفر غير القانوني والتدبير للإضراب. وفي العام 1964، حكم عليه مرة أخرى بالسجن مدى الحياة بتهمة التخطيط لعمل مسلح.[50]

خلال سنوات سجنه السبعة و العشرين، أصبح النداء بتحرير مانديلا رمزاً لرفض سياسة التمييز العنصري، وكانت رسائله المسربة من السجن تدفع بعناصر حركته للاستمرار في النضال والمطالبة بإنهاء الفصل العنصري، حيث تضمنت رسائله روح المقاومة التي تطالب المؤتمر بالاتحاد لسحق بنية الفصل العنصري

[48] أنتوني سمبسون ، **مانديلا السيرة الموثقة**، ترجمة هالة النابلسي (بيروت: مكتبة العبيكان، 2011)، ص. 14.
[49] فاطمة نصر، **مسيرة طويلة نحو الحرية السيرة الذاتية لنيلسون مانديلا** (القاهرة: دار الهلال، 1995)، ص. 63 وما بعدها.
[50] هشام خضر، **نيلسون مانديلا** (القاهرة: دار طيبة للطباعة، 2013)، ص. 150-152.

وفكرته. وفي العام 1990، وبعد أن أمضى 27 عاماً في السجن، أفرج عن مانديلا زعيم حركة النضال ضد التفرقة العنصرية (الأبارتهيد) في جنوب أفريقيا، وبأكثر من ذلك، تسلم مانديلا رئاسة الجمهورية، ومنح جائزة نوبل للسلام. وبذلك، غدا مانديلا واحداً من السياسيين القلائل الذين اعترف العالم كله بمنزلته الأخلاقية والمعنوية الرفيعة،[51] وقد عرفت عنه مواقفه الداعمة، دون أي شكل من أشكال الاعتذارية، للقضية الفلسطينية وحق االشعب الفلسطيني في الحرية وتقرير المصير.

2.1.2.5 جيفارا الثائر العنيد

جيفارا هو أحد أشهر الثوار اليساريين في العالم، وقد ولد في الأرجنتين لعائلة من الطبقة المتوسطة في 14حزيران 1928، وكان والده من أصول إيرلندية، وأمه من أصول إسبانية. وقد أصيب جيفارا في صغره بالربو الذي رافقه طيلة حياته. وقد تخرج جيفارا في العام 1953 من كلية الطب في جامعة بيونس آيرس في الأرجنتين، وشارك في العديد من الثورات، وحروب التحرير ضد الاستعمار والظلم، وترك أثراً طيباً في الكثير من البلدان التي زارها، حيث نذر حياته فداء للحرية والتحرر من قبضة الاستعمار الغاشم في العالم.[52] وقد كان جيفارا صارماً في قراراته، مقتنعاً بأفكاره الإنسانية بعيداً عن مادية الأرض وملذاتها، حيث حارب في عالم كثر فيه المعارضون الأقوياء، فلم يستسلم، لأنه آمن بالإنسان وقدرته على تغيير الواقع المظلم، فأصبح رمزاً خالداً في قلوب الثوار أينما وجدوا.

قرأ جيفارا ماركس وفرويد منذ نعومة أظافره، ما أدى إلى تشكل نواة فكره الماركسي الاشتراكي. وقد عايش جيفارا مأساة لاجئي الحرب الأهلية الإسبانية، والأزمات السياسية المتتابعة في الأرجنتين خلال عهد جوان بيرن، فغرست هذه الأحداث في ذهنه احتقاراً للأنظمة الديمقراطية البرلمانية، وكرهاً للسياسيين وحكم الرأسمالية، وقبل ذلك كله نقمة على حكم واستعباد دولار أمريكا الإمبريالية للعالم. وقد قام جيفارا وهو في عمر 23 برحلته الطويلة إلى أمريكا الجنوبية، حيث صقلت هذه الرحلة أفكاره وشخصيته الثورية، ما انعكس فيما بعد على مشاركته في الثورات ضد الاستعمار، حيث: شارك في مقاومة الانقلاب العسكري في غواتيمالا في العام 1954، ومن بعدها انتقل لملاقاة الثوار الكوبيين المنفيين في المكسيك، ثم التحق بالثورة الكوبية،

[51] عبد العزيز حسين، **نيلسون مانديلا** (دار المؤلف، 2014)، ص197. وتجدر الإشارة إلى أنه في العام 1985 عرض على مانديلا إطلاق سراحه مقابل إعلان وقف المقاومة المسلحة إلا انّه رفض العرض وبقي في السجن حتى 11 فبراير 1990 عندما أثمرت مثابرة المؤتمر الافريقي و الضغوطات الدولية عن إطلاق سراحه بأمر من رئيس الجمهورية فريدريك دي كليرك الذي أعلن ايقاف الحظر الذي كان مفروضاً على المجلس الافريقي.

[52] هشام خضر، **مذكرات أرنستو تشي جيفارا** (الجيزه: مكتبة النافذة، 2008)، ص. 3.

حيث حاول تطبيق نظريته التي تتحدث عن انبعاث الثورات من الأرياف والجبال حتى تصل في النهاية إلى المدن.[53]

كانت شخصية جيفارا الثورية متأثرة بالفكر الشيوعي للزعيم الصيني ماو تسي تونغ، إضافة إلى تأثره بالفكر الماركسي عموماً. ويذكر أن جيفارا تأثر بشريك نضاله فيدل كاسترو الذي ظهر معه في ساحة النضال أثناء خوض الانتفاضة المسلحة ضد حاكم كوبا-الدكتاتور باتيستا. هناك، استطاع جيفارا تحقيق العديد من الانتصارات رفقة فيدل كاسترو، واستمرت حرب العصابات التي خاضاها قرابة سنتين، ونتج عنها دخول الثوار إلى العاصمة الكوبية هافانا في العام 1959، وتم إسقاط باتيستا.[54] وقد ساند جيفارا الحركات التحررية في كل من فيتنام والجزائر وتشيلي، وحاول إقامة مجموعات ثورية في الكونغو إلا أنه لم ينجح، وكان مثلاً أعلى لثوار السلفادور، وغالبية شعوب العالم المناهضة للظلم.[55]

بعد خروج جيفارا من كوبا، توجه إلى بوليفيا، وهناك بدأت المرحلة الأخيرة من المطاردة الأمريكية والدولية له، والتي استمرت أكثر من سنتين، واستعملت الولايات المتحدة فيها كافة الوسائل للنيل من هذا المطارد العنيد، وللتغلب على حرب العصابات التي كان يقودها. وفي العام 1967، ألقت السلطات البوليفية القبض على المفكر الماركسي ريجيس دوبريه، وهو من وفاق جيفارا في النضال، وعذبته من أجل الاعتراف على مكان المطارد جيفارا. وقد درَّبت أمريكا قوات خاصة لملاحقة جيفارا في الغابات والجبال محاولين الإمساك به. وفي 8 أكتوبر، كان جيفارا في الجبال ينتظر الفرصة للانسحاب منها، إلا أن فرقة من القوات البوليفية مكونة من 1500 جندي حاصرته ورفاقه، واستمر جيفارا بالقتال أكثر من ست ساعات، وبعد أن قضى معظم رفاقه، لم يستطع الصمود بعد نفاذ ذخيرته، فأسر حياً ونقل إلى قرية قريبة، وتم التحقيق معه بعنف لمدة 24 ساعة دون أن ينطق بكلمة واحدة. وأخيراً، جاءت الأوامر بإعدامه ميدانياً، حيث نفذ حكم الإعدام فيه رمياً بالرصاص في ساحة مدرسة القرية.[56]

وهكذا انتهت حياة الثائر والمناضل الأممي جيفارا على يد جنود الجيش البوليفي وبتعاون مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. قضى جيفارا واقفاً كالأشجار. وحتى عندما أُسر، كان مصاباً في قدمه إصابة بليغة، ولم يعالج، لأن الجميع أرادوه ميتاً خوفاً من محاكمته العلنية والتي كان من شأنها أن تفضح ظلم

---

[53] - عبد العزيز حسين ، **جيفارا** (دمشق، دار المؤلف، 2016)، ص. 7.

[54] - شيرين أحمد ، " من هو جيفارا" (2018،) https://mawdoo3.com/ تاريخ الزيارة 2018/12/5.

[55] المصدر السابق.

[56] أحمد ناصيف، **صفحات في تاريخ جيفارا** (دمشق: دار الكتاب العربي، 2010)، ص. 146 وما بعدها.

الدكتاتوريات في أمريكا اللاتينية وتغوُّل الإمبريالية العالمية، وتتحول إلى شأن دولي. وتنسب إلى جيفارا آخر عبارة كتبها جيفارا في يومياته: "كنا 17 نتقدم في ظلال ضوء القمر الخافت ببطء، وكنا نشعر بأن الخطر يرافق كل خطوة من خطواتنا كأنه يسير مع وقع حوافر الخيل على الصخور الناتئة وتركنا وراءنا آثاراً عديدة". لقد كان جيفارا يحدس بمصيره وبنهايته، وعلى الرغم من علمه أن الموت هو نهاية حتمية لأفعاله الثورية، إلا أنه كان يتطلع إلى الحرية والتحرير، فواصل المسير، ولقي نهايته المشرفة.

2.2 المطاردة في الثقافة العربية

2.2.1 مفهوم المطاردة في الثقافة العربية

هناك العديد من التجارب النضالية والمقاومة التي تخللتها الملاحقة والمطاردة للثوار عند شعوب العالم، وبالتأكيد أن الثقافة العربية لم تكن استثناءً من حيث أنها غصَّت بالنماذج الثورية قديماً وحديثاً، ذلك أن العالم العربي رزح تحت نير احتلالات واستعمارات متوالية منذ الزمن الإمبراطوري في العالم، وحتى اللحظة- زمن آخر الاستعمارات الاستيطانية-"إسرائيل." وضمن هذا السياق الغني والتاريخ الطويل، اندلعت الثورات وتعددت قصص النضال لمناضلين وثوار سطَّروا أروع صور المقاومة لهذه الهيمنات المتوالية البغيضة.[57] وإذا ما تم تجاوز التأريخ الفكري للحركات الثورية في الجنوب العالمي والشرق العربي، فإن ثقافة المقاومة، جسدتها أعمال أدبية معاصرة، في كل بلد عربي، شعراً ورواية وأغنية وإبداعاً ومواقف، ومنها الأعمال المسرحية لسعد الله ونوس، وأشعار أمل دنقل وغيرهم ممن كانت أعمالهم الفنية معالم على طريق المقاومة في وجه اليأس والإحباط والتخاذل. وكذلك الأعمال الأدبية لسميح القاسم، ومحمود درويش، وهو "يربي الأمل" في ديوانه "حالة حصار."[58] وقد برز مؤخراً اهتمام بالغ بثقافة المقاومة في السياق العربي، ومن ضمنها أساليب وأخلاقيات القتال ضد العدو سواء على المستوى الشعبي الجماعي، أو على المستوى الفردي.[59] وفيما يلي استعراض موجز لمحطات لافتة من تجارب المواجهة عموماً، والتي تضمنت في جزء مركزي منها، عملية هروب، أو اختفاء، أو مطاردة.

---

[57] للاطلاع على تاريخ تفصيلي لقادة الحركات والشخصيات الثورية في الشرق العالمي، انظر: هادي العلوي، **مدارات صوفية: تراث الثورة المشاعية في الشرق** (دمشق: مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، 1997).

[58] يوسف الحسن، " ثقافة المقاومة" **جريدة الاتحاد** (2017)، www.alittihad.ae/article/9523/2017 ، تاريخ الزيارة 2018/11/15.

[59] للمزيد حول ثقافة المقاومة، انظر: حسن حنفي (محرراً)، **ثقافة المقاومة** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2007).

2.2.2. نماذج عربية

2.2.2.1 مطاردات قديمة: عيسى، محمد، أبو حمزة، الحسين

أرغب في بداية هذا القسم أن أشير إلى اعتزال السيد المسيح من مبغضيه وجلَّاديه في دراستي هذه، لا لشيء إلا لأنني أعتقد أن الهروب من الظلم والاستعداء هو ركيزة إنسانية مورست من زمن الأنبياء أصحاب الدعوات الدينية الكونية وحتى المناضلين والمطاردين في الأزمنة الحديثة. ونظراً لرمزية السيد المسيح، المطارَد الفلسطيني، والشهيد الفلسطيني والكوني الأول، فلا بدَّ من ذكر معاناته وأساليب احتجابه من وجه قادة اليهود في حينه، ومن بطش الاحتلال الإمبراطوري الروماني الذي جثم على هذه الأرض الفلسطينية بقوة الجندي وصرامة القانون، وقد ضاع في تلك الحقبة، وما تلاها، الكثير من معاني الحق والعدل.

في ظل هذا الوضع العام المشحون بنار الغضب الشعبي ولد السيد المسيح في أعقاب ثورة كبرى اشتعلت في أقاليم فلسطين القديمة وأُهرقت فيها دماء الآلاف من الفقراء والبسطاء والغلاة على حد سواء.[60] وقد جاءت دعوة المسيح في ظل هذه العاصفة الاجتماعية والسياسية ذات الطابع الثوري، فكان المسيح الثائر في زمانه على الظلم الواقع في فلسطين. فمنذ الخطوة الأولى التي خطاها السيد المسيح في التبشير برسالته، أخذ على نفسه أن يعتزل السلطة والسلطان ويتنحى من ميدانها، لكن ذلك حبَّب فيه الناس البسطاء، حيث تبعته الجموع التي ذاقت ويلات السلطة الرومانية والكهنوتية اليهودية.[61]

وقد حيكت ضد السيد المسيح المؤامرات من أجل استدراجه إلى كلمة تثبت عصيانه وتمرده على الدولة أو كلمة تثبت كفره في نظر الكهنة والهيكل.[62] ولكن، لطبيعة المسيح الثورية لم يستطع في مناظرة عامة أن يصبر على حجتهم الفارغة، فثار في وجههم، وكانت هذه الفرصة التي أرادها أعداؤه للإيقاع به، ما دفع السلطة الحاكمة لملاحقته والحكم عليه بالإعدام، بعد أن اعتزل في الجبال والشعاب، ووعظ تلاميذه وبسطاء الناس، ونصحهم بالعمل السري والجهر في الحق حيث يكون الوقت مناسباً، الأمر الذي يظهر من مجاز "ملح الأرض" و"نور العالم" في موعظة الجبل.

---

[60] عباس العقاد، **حياة المسيح في التاريخ وكشوف العصر الحديث** (القاهرة: نهضة مصر، 2005)، ص. 41.

[61] المصدر السابق، ص43.

[62] للمزيد حول ثورة المسيح، واختفائه، ومطاردته، واستشهاده، انظر: هادي العلوي، **مدارات صوفية**، مصدر سبق ذكره، ص. 118-121.

وقياساً على هذه التجربة لاعتزال السيد المسيح، عيسى النبي الفلسطيني، يمكن القول إن تجربة النبي محمد في الهجرة من مكة إلى المدينة المنورة (يثرب في حينه) سنة 622 للميلاد، كانت تجربة هروب واختفاء ومطاردة بامتياز،[63] مع أن تجارب عربية أخرى يمكن تدوينها من خلال أشعار الصعاليك الذين كانوا مطاردين بامتياز كذلك في السياق المعروف بـ"الجاهلية."[64] أما ملاحقة قريش للنبي محمد في الصحراء والجبال، تتشابه في أسبابها وبعض مواصفاتها التفصيلية مع مطاردة أصحاب الدعوات الثورية ابتداءً بالسيد المسيح، وليس انتهاء بالثورة الفلسطينية المعاصرة. ولعل الحديث المنسوب للنبي محمد حول خروجه مكرهاً من مكة إلى المدينة، خشية على نفسه ودعوته، يؤكد هذا المعنى: "والله إنك لأحب أرض الله إليَّ، ولولا أن أخرجني أهلك منك ما خرجت أبداً،" مع أنه بذلك نقل الدعوة الإسلامية من القبيلة إلى الدولة المركزية.[65] أما الأمر اللافت، فهو أن تجربة مطاردة النبي محمد، كما توردها مصادر السيرة النبوية، اتخذت طابعاً أكثر تفصيلية من حيث الخشية من القتل والتصفية، واختيار الفدائي علي بن أبي طالب ليحل محله، وأبو بكر الصديق ليكون رفيق رحلته، والاختفاء في غار ثور، وقصّ الأثر من قبل سراقة بن نوفل، والوصول إلى المدينة، والبيعة، وتأسيس مجتمع المدينة... كلها كانت تجربة مطاردة نادرة في التاريخ العربي.

وفي السياق الإسلامي، يمكن إدراج ثلاثة تجارب تاريخية لافتة في تاريخ الثورة والمطاردة، وهي: تجربة الخوارج، وتجربة الحسين بن علي، وثورة القرامطة، من ضمن تاريخ طويل من الخروج على النظام الحاكم باسم أمير المؤمنين في دولة الخلافة التي كانت سبب كل خلاف.[66] أما الخوارج، فقد نشأت حركتهم نتيجة للخلاف السياسي بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان على من يتولى الحكم، وكانوا مقاتلين في جيش علي، لكنهم اعترضوا على مبدأ التحكيم، وليس على نتيجته فقط. وقد أطلق على الخوارج حسب ثوريتهم وتعصُّبهم المذهبي عدة صفات وألقاب، منها: الحرورية، والشراة، والمارقة، والمحكمة، والإباضية.[67] وما يهمنا، في هذا السياق، من أمر الخوارج هو فكرهم وعقيدتهم التي تطالب بمقاومة الحاكم الظالم وعدم طاعته أو الخضوع له، وهذا الفكر أو الروح المقاومة عند الخوارج لها عدة أصول،[68] يمكن

---

[63] انظر التفاصيل الكاملة للهجرة: عبد القدوس الأنصاري، **طريق الهجرة النبوية** (جدة: مطابع الروضة، 1978).
[64] انظر: يوسف اليوسف، **مقالات في الشعر الجاهلي** (بيروت: دار الحقائق، 1980).
[65] انظر: خليل عبد الكريم، **قريش-من القبيلة إلى الدولة المركزية** (القاهرة: سينا للنشر، 1997).
[66] أدونيس، **الثابت والمتحول-حركات الاتباع والإبداع عند العرب** (بيروت: دار الآداب، 1973).
[67] ناصر عائض الشيخ، **عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام رضي الله عنهم** (الرياض : مكتبة الرشد، 2000)، ص. 11- 33.
[68] أحمد أمين، **ضحى الإسلام**، ج3 (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ، 2001)، ص. 330.

الاطلاع عليها، مثلاً، من خطبة أبو حمزة الخارجي الذي يجسد أحد أهم النماذج الملهمة للمطارَد الثوري في التاريخ العربي القديم.[69]

وأما القرامطة، فيصنفهم المناضل أحمد قطامش في كتابه "في التنظيم الثوري السري" من ضمن الحركات السرية ذات الفكر اليساري التي تطالب بالتغيير الاجتماعي والسياسي والفكري، حيث قال عن حركتهم إنها "حركة سرية تأسست إبَّان ثورة الزنج، وقد توسعت بعد أن انضم لها فقراء البلاد والفلاحون والحرفيون في البحرين والعراق وخراسان واليمن وبلاد الشام، ورفعوا شعارات اشتراكية نادت بالملكية الجماعية وأدخلوا نظام توزيع المواد الاستهلاكية بالتساوي."[70] وعلى الرغم من أن كثيرين ممن كتبوا عن تاريخ القرامطة أخرجوهم من الملَّة، إلا أن محمد أركون، شأنه شأن أحمد قطامش، رأى في القرامطة حركة ثورية ذات طابع اشتراكي ثوري، قامت على مفاهيم العدل الاجتماعي ومحاربة تغوُّل السلطات الحاكمة. ولذا، فقد دعا أركون إلى قراءة جديدة لهذه الحركة الفكرية الثورية التي لاقى ثوَّارها أقسى أنواع الملاحقة والاستهداف.[71]

وأما الحسين بن علي، الذي رفض تولي يزيد بن معاوية الخلافة،[72] فيعدُّ، وبلا منازع أعظم قادة الثورات في التاريخ العربي، كما يعد نموذج الشهيد الأعظم الثاني بعد السيد المسيح في الثقافة العربية، ذلك أن مثَّل قمة الخروج على حكم بني أمية، وتحمَّل هو وشيعته الكثير من الظلم والعسَف والجوع والعطش وسفك الدم في سبيل ثورتهم. وما يهمنا، في هذا المقام، هو إبراز الصورة الثورية للحسين مع فهم المغزى النضالي لتمرُّده ورفضه للحكم القائم آنذاك، الأمر الذي جعله أهم المرجعيات الدينية عند الشيعة لما يتمتع به من صفات ومناقب جعلته في مرتبة القديسين عند أتباعه، وعند كثير من أحرار العالم، إلى اليوم. فالشيعة يرون فيه حفيد رسول الله والأقرب إلى دعوته، والأوفى لمنهجه، حيث انتفض على الظلم والحكم المستبد رغم أن الكثيرين خذلوه وتخلوا عنه في أول لقاء مسلح بين الجيش الأموي والثوار من أتباعه، كما حدث مع السيد المسيح قبل الصلب، حين قال تلاميذه: "لا نعرفه." أما الحسين، فيُروى أنه لقي الشاعر الفرزدق، فسأله

---

[69] للاطلاع على نص الخطبة، انظر: عمرو بن بحر الجاحظ، **البيان والتبيين** (بيروت: دار إحياء العلوم، المجلد الأول، 1993)، ص. 487-490.

[70] - قطامش، مصدر سبق ذكره، ص 153.

[71] ذياب محسن، "قراءة في فكر القرامطة/ محمد أركون نموذجا" (2007) www.m.ahewar.org تاريخ الزيارة 2018/12/6. وانظر كذلك:
مي الخليفة، **من سواد الكوفة إلى البحرين: القرامطة من فكرة إلى دولة** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1999).

[72] للاطلاع على تفاصيل هذا الصراع السياسي الدامي، انظر: محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الطبري/ تاريخ الرسل والملوك**، مج 6، (بيروت: دار التراث، 1378 هجري)، ص. 259؛ إسماعيل بن عمر ابن كثير، **البداية والنهاية**، مج 8 (بيروت: مكتبة المعارف، 1990)، ص. 149؛ علي الصلابي، " استشهاد الحسين بين الحقائق والاوهام" دراسة منشوره على موقع www.libya-web.net ، تاريخ الزيارة 2018/12/21.

عن أحوال الناس، ورأيهم في ثورته وملاحقة أهله ورفاقه الذين معه، فأجاب الفرزدق: "قلوبهم معك، وسيوفهم مع بني أمية، وما النصر إلا من عند الله."[73] ولعل ما يستفاد من نموذج الحسين الثائر، أن ثورته لم تقم لمصلحة ذاتية أو منفعة شخصية، رغم أنه نُصح من الجميع بعدم الخروج والتمرد على الحكم القائم، إلا أنه أبى إلا أن يقاتل الظلم والبغي والاستبداد. فالنفوس الثائرة دوماً لا ترضى الاستكانة والرضوخ للأمر الواقع، وفي سبيل ذلك تتعرض للمطاردة والملاحقة والقتل، وفقدان الأخوة والسند. فالحسين قدوة ناصعة في جبين التاريخ العربي الإسلامي لكل رافض للاستبداد والديكتاتورية والظلم في كل زمان ومكان.

2.2.2.2 مطاردات حديثة: الخطابي، الجزائري، المختار

لم يقتصر وجود النماذج الثورية التي تخللت حياتها تجربة مطاردة واختفاء على التاريخ العربي في العصور القديمة والوسطى، بل امتدت هذه التجارب لتسجل أنصع صورها في الكفاح ضد المستعمَرين في المغرب والمشرق العربي. ونظراً لنشاط الكفاح الوطني الفلسطيني في المشرق العربي بشكل خاص، وهو ما سنستعرضه في الفصل التالي بشكل مفصَّل، فإن هذا القسم سيركز على ثلاثة نماذج بارزة في المغارب العربي. يتناول في هذا الجزء كل من المغرب، والجزائر، وليبيا، متمثلة في شخصيات المناضلين الثوريين ضد الاستعمارات الإسبانية والفرنسية والإيطالية، وهم: محمد عبد الكريم الخطابي، وعبد القادر الجزائري، وعمر المختار.

محمد عبد الكريم الخطابي هو النموذج الثوري من المغرب العربي، وهو الذي قاوم الاستعمار الإسباني والفرنسي في الريف المغربي، وثار على المحتل الأجنبي لبلاده رافضاً ظلمه وتجبره في أبناء شعبه. لقد ولد هذا المناضل العربي الشرس في أجدير، ودرس علوم الدين وحب الوطن في جامعة القرويين في مليلية، واشتغل في القضاء. ونتيجة لعلاقته مع القنصل الألماني، تم سجنه بتهمة التآمر في العام 1916، وعندما خرج من السجن قرر أن يناضل من أجل استقلال بلاده، فعاد إلى منطقته الريفية وأخذ يوحِّد القبائل لقتال الاستعمار الإسباني والفرنسي معاً ولم تكن مهمة الخطابي سهلة، وخاصة في بداية دعوته لبث روح النضال، حيث انطلقت عملياته القتالية في العام 1919[74]. وقد حقق الخطابي انتصارات كبيرة ضد الإسبان، خاصة ما أنجزه في معركة أنوال، حيث ذاع صيته عند أبناء قبائل الريف، حيث كانت ثورته في الريف ناجحة الى

[73] محمد الحسين الحسيني الطهراني، **خطبة الحسين يوم عاشوراء-لمعات الحسين** (دار المحجّة البيضاء، د.ت.) ص. 37-43.

[74] محمد العربي المساري، **محمد بن عبد الكريم الخطابي من القبيلة إلى الوطن** (بيروت: المركز الثقافي العربي، 2012)، ص. 42.

حد بعيد، رغم ما وجد من صعوبات في بداية الأمر من فساد الهمم و شيوع الروح الانهزامية. وقد كان الانتقال من حالة، الانهيار التي كانت سائدة في العشرينيات من القرن الماضي، إلى حالة النهوض في المجتمع الريفي شيئاً يحسب للخطابي، الذي استطاع أن يخلق مناخاً ثورياً في ريف يكاد يكون مستسلماً للمحتل الإسباني. وقد أسس الخطابي، بعد ذلك، جمهورية الريف، ووضع لها دستوراً وبرلماناً وطنياً. إلا أن الاستعمار الفرنسي والإسباني تحالفا ضده، وتمت مطاردته هو ورجاله فترة طويلة 1921-1926، حتى وقع في نهاية المطاف في قبضة المحتلين، وتم نفيه إلى جزيرة ريونيون في المحيط الهندي، ومن ثم إلى القاهرة في العام 1947، والتي أقام فيها حتى وفاته في العام 1963.[75]

أما عبد القادر الجزائري، فقد قاوم الاستعمار الفرنسي لبلاده مسجلاً صفحة ناصعة في تاريخ بلد المليون شهيد، ومرحلة مهمة من مراحل الكفاح المسلح في الجزائر. ولد هذا المناضل في العام 1808، وتعلم في مساجد مدينة معسكر الجزائرية القرآن والحديث، وتابع تعليمه الديني في مدينة وهران.[76] وجراء ما يتمتع به من نسب كريم وقيادة في منطقته وبعد مبايعته أميراً وحاكماً للبلاد في العام 1832، تمكن الجزائري من تأسيس دولة وطنية حديثة، الأمر الذي أزعج الدول الأوروبية الاستعمارية وجلب اهتمامها بالجزائر التي بدأت تخطو أول خطاها نحو الاستقلال.[77] وإثر محاولة توحيد الجزائر، اشتعلت المعارك مع الفرنسيين الذين كانوا يسيطرون على مواقع هامة من الأرض، ونشبت مقاومة شرسة من قبل عبد القادر ورفاقه ضد جنرالات الحرب الفرنسيين لذين كانوا يديرون شؤون فرنسا في هذا البلد، خاصة الجنرال تريزيل الذي خلف الجنرال ديميشال منذ العام 1835.[78] وبعد حرب سجال بين الثوار والمستعمرين، وعقد هدنة العام 1937، نقض الفرنسيون المعاهدة الأخيرة، كما فعلوا مع سابقاتها، الأمر الذي دفع الأمير إلى الحرب ثانيةً دفاعاً عن وطنه وشعبه. ورغم شراسة القتال وصمود الأمير عبد القادر ورفاقه، إلا أن القوات المحتلة استطاعت أن تحتل العاصمة نتيجة لتفوقها العسكري، وذلك في العام 1843، وأمعنت في قتل الشيوخ والنساء والأطفال وحرق البيوت والأراضي الزراعية. ورأفةً بشعبه، غادر الأمير الثائر مطارداً إلى المغرب طالباً العون من السلطان المغربي لمقاتلة الفرنسيين، وهذا ما كان. فعاد الأمير إلى الجزائر وبدأ باقتحام المواقع الفرنسية، وتغلغل في البلاد حتى وصل إلى مساحات واسعة من الجبال، ومع ذلك كله كانت قوات الأمير أضعف من أن تواجه جيوش الفرنسيين الهائلة. هنا، وبعد مطاردة طويلة من قبل الفرنسيين، استشار الأمير معاونيه

[75] المساري، المصدر السابق، ص 42-45.
[76] عدة بن داهة، **رحلة في رحاب دولة الأمير عبد القادر** (الجزائر: دار الخلدونية للنشر، 2014)، ص. 4.
[77] خيثر عبد النور وآخرون، **منطلقات وأسس الحركة الوطنية الجزائرية** (الجزائر: المركز الوطني ، 2007)، ص. 325.
[78] يحيى بوعزيز، **الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري** (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986)، ص. 102.

وأشاروا عليه بتسليم نفسه للفرنسيين، وذلك لمصلحة الشعب الجزائري، فسلم الأمير نفسه، ونفي عن الجزائر في العام 1848.[79]

وأما عمر المختار، فقد ناضل ما يقرب من عشرين عاماً ضد الاستعمار الإيطالي لبلاده ليبيا، وهو صاحب المقولة الشهيرة: "نحن لا نستسلم، ننتصر أو نموت. وسيكون عليكم محاربة الجيل القادم والأجيال التي تأتي من بعده." ولعل هذه المقولة تعكس روح الإيمان بالله أولاً، وبعدالة القضية التي كانوا يناضلون من أجلها ثانياً، والمحفز الأكبر لإرادة القتال. وقد عاش المختار في وجدان كل ثائر عربي وعالمي وحفظته الذاكرة أكثر من جلَّاديه، فما من مناسبة وطنية أو سياسية إلا ويُذكر فيها بالثناء والإعجاب. ولد المختار في قرية دفنة الليبية في العام 1862، ومات أبوه في الحج وهو فتى صغير، فكفله أحد أقاربه، وعلَّمه الدين الإسلامي، وفقه الحديث، ثم دربه على ركوب الخيل واستخدام السلاح، ما أسهم كل ذلك في جعله يحتل مكاناً بارزاً في قلوب أقرانه والمحيطين به.[80] وقد بدأ المختار نضاله ضد المستعمر الإيطالي في العام 1911، حيث اندلعت الحرب بين ليبيا وإيطاليا، وكان المختار في واحة جالو حينها، وما أن أعلن عن أمر التجنيد حتى التف حوله أكثر من ألف مقاتل، وتحرك هو وثواره نحو القبائل لتجنيدهم في صفوفه. واستطاع المختار أن يقود القتال مع المحتل الإيطالي في الليل، والنهار، بطريقة الكر والفر وحرب الغوار التي أرهقت المحتل، فانتصر المختار في كثير من الأحيان، وكسب العتاد، الأمر الذي مكنه من مواصلة القتال، [81] إلى أن جاء الحاكم العسكري غراتسياني، فاستخدم سياسة الأرض المحروقة، وشدد الخناق على الليبيين وطارد الثائر المختار في الجبال والوديان، حتى تم القبض عليه في ساحة المعركة، وقدم لمحاكمة صورية وتم إعدامه أمام شعبه في العام 1932. وفي هذا، قال القائد الإيطالي غراتسياني: " كان عمر المختار موهوباً، يتقد ذكاءً وسرعة بديهة، كما كان غزير المعرفة بالعلوم الدينية ويتمتع بالنشاط والصرامة والاندفاع كما كان يتميز بنكران الذات وشدة البأس، عاش فقيراً وورِعاً ومتمسكاً بدينه كان يناصبنا العداء الصريح دائماً، فلم يتنازل أو يهادن ولم يساوم على حق."[82]

---

[79] عمر المدني، **أعلام الجهاد** (عمان: الدار المتحدة للنشر، 1998)، ص. 34.

[80] المدني ، المصدر السابق، ص79.

[81] اينزو سانتاريللي وآخرون، **عمر المختار وإعادة الاحتلال الفاشي لليبيا**، ترجمة عبد الرحمن العجيلي (دمشق: مطبعة الانشاء، 1988)، ص. 63-64.

[82] المصدر السابق، ص. 220-221.

الفصل الثالث: المطاردة من منظور المطارَدين

3.1 مفهوم المطاردة في الفكر النضالي الفلسطيني

المطارد والمطاردة من أهم المفردات النضالية التي لا تكاد تغيب عن الساحة الفلسطينية، وهناك العديد من المذكرات الشخصية لمناضلين وثوار سردوا تجربتهم النضالية في المطاردة من قبل العدو الصهيوني. فمفهوم المطاردة متجذر في الفكر النضالي الفلسطيني لكونه حالة معاشة في المجتمع الفلسطيني، إذ لا تكاد مدينة أو قرية أو مخيم إلا وقد شهدت أحد أشكال المطاردة بشكل مباشر أو غير مباشر، لأبنائها أو لملتجِئين إليها، سواء كانت مطاردة طويلة أو قصيرة، وذلك يعود إلى تخطيط المطارَد نفسه، وتكتيكاته، والعوامل المحيطة به.[83]

إن تجربة المطاردة ليست بالتجربة الهينة، لكنها ليست حالة مستحيلة، ذلك أن المناضل الفلسطيني مارسها في جميع حقب النضال والصراع مع القوى الاستعمارية أو ذات الوصاية، ولكنها تصاعدت بشكل غير مسبوق مع المحتل الصهيوني. والمطاردة هي مراهنة على الحياة، والخطأ فيها قد يكون نهاية المطاف بالموت. واستناداً إلى هذه المعطيات، رُسمت صورة المطارد في الفكر النضالي الفلسطيني بأنه البطل الذي يقارع الاحتلال رغم كونه الجانب الأضعف، إلا أنه إن أحسن الاستعداد والعمل، فإن نقطة ضعفه ستصبح نقطة قوة يربك بها المحتل الصهيوني.

من هنا يأتي مفهوم المطارد بأنه الشخص "الميت-الحي" أو "الشهيد مع وقف التنفيذ". وهو بذلك، ينتظر ثلاثة احتمالات، هي: البقاء في حالة المطاردة والتخفّي، أو الاستشهاد بعد أن يُعلن عنه كمطلوب لقوات الاحتلال، فيضع نصب عينيه أنه صار هدفاً للاغتيال، أو الاعتقال بعد مباغتته في مكمنه، أو بطريق الصدفة على أحد الحواجز الاحتلالية العسكرية.

وفي هذا الشأن يقول الأسير القائد مروان البرغوثي إن "من وسائل العمل السري ما يطلق عليه الاختفاء أو المطاردة من أجل البقاء بعيداً عن قبضة العدو والحفاظ على المقاوم حراً طليقاً مستمراً في تنفيذ برامجه ومهامه المقدسة في مقاومة ومحاربة الاحتلال الغاشم. ليس المطلوب الاختفاء أو المطاردة، بل على الأقل

[83] - محمد صبحة، **أمن المطارد** (د م، د ن، 2010)، ص. 17-18.

الجهوزية لهذا الاحتمال، من حيث توفر وسائل ذلك كالمخابئ والأنفاق. المطاردة إذاً ليست فقط من حق من تأكد أن اعتقاله قريب أو لمن حاول الاحتلال اعتقاله ونجح في التملص والهرب، بل قد يكون احترازياً، ولفترة محدودة لفحص احتمالات وصول معلومات خاصة للعدو."[84] ومن هنا، فقد شكلت المطاردة حالة نضالية فريدة، لها أدبياتها وأسسها التي تفرَّد بها المناضل الفلسطيني عن غيره من المطاردين من نماذج دولية وعربية، وذلك بكون حالة المطاردة عند المناضل الفلسطيني مستمرة ما دام الاحتلال.

3.2 المطاردة في التجربة الفلسطينية 1968-2018

لقد شهد التاريخ الفلسطيني الحديث، منذ مطلع القرن العشرين وحتى اللحظة، سلسلة من الهيمنات الاستعمارية المتوالية (كالعثمانيين والإنجليز والصهاينة)، والوصايات السياسية (الوصاية الأردنية والمصرية). وقد شهدت هذه الحقب صراعاً دامياً مع المستعمِرين، وصداماً مع أصحاب الوصاية، تخلَّلت كليهما بالضرورة حالات المطاردة التي أشير إليها في قسم "أدبيات الدراسة" في الفصل الأول من هذه الرسالة.[85] ولكن تجربة المطاردة الفعلية تصاعدت بعد تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية بأربع سنوات بإصدار الميثاق الوطني الفلسطيني في العام 1968، وبإحكام "إسرائيل" قبضتها على بقية مساحة فلسطين التاريخية بما فيها الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس كاملة، وبعض الأراضي العربية كالجولان السوري وسيناء ووادي عربة.

3.3 تجربة المطاردة كما يرويها أصحابها

مع هذا التغيُّر الدراماتيكي الكبير في سيطرة دولة العدو على كامل الأرض الفلسطينية، وجزء من الأراضي العربية، أصبح العمل النضالي محفوفاً أكثر بالمخاطر والملاحقة حتى حدود الدول العربية-دول الطوق.

---

[84] - مروان البرغوثي، **مقاومة الاعتقال** (القدس: مركز أبو جهاد لشؤون الحركة الأسيرة، 2010)، ص97.

[85] وللمزيد حول تاريخ هذا الصراع والصدام، انظر: عادل مناع، **أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني (1800-1918)** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1997)؛ سليم تماري، "الرؤية العثمانية لفلسطين: الترسيم العثماني الإثنوغرافي لفلسطين وسورية،" ترجمة عبد الرحيم الشيخ، **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد 84 (2010)، ص. 53-72؛ رنا بركات، "مجرمون أم شهداء: فلندع المحكمة تقرر-الإرث الاستعماري البريطاني في فلسطين وتجريم المقاومة،" **عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية**، المجلد 2، العدد 6 (2013)، ص. 55-72. إلياس شوفاني، **الموجز في تاريخ فلسطين السياسي منذ فجر التاريخ حتى سنة 1949** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1998)؛ سميح فرسون، **فلسطين والفلسطينيون** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2003) ؛ عبد الوهاب الكيالي، **الموجز في تاريخ فلسطين الحديث** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1970)؛ يزيد صايغ، **الأردن والفلسطينيون: دراسة في وحدة المصير والصراع الحتمي** (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 1987)؛ عبد العظيم رمضان، **القضية الفلسطينية بين مصطفى النحاس وعبد الناصر** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2003)؛ ماهر الشريف، **البحث عن كيان: دراسة في الفكر السياسي الفلسطيني 1908-1993**(نيقوسيا: مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم، 1995).

وفيما لاحقت إسرائيل الفدائيين الفلسطينيين القادمين من خارج فلسطين فيما يُعرف بعمليات "الدوريات" متى تمكنوا من اجتياز الحدود والمكوث في جبال فلسطين لتنفيذ عمليات... لاحقت الفدائيين الذين انتموا لفصائل منظمة التحرير الفلسطينية بشكل أكثر شراسة. ولكن المناضلين الفلسطينيين "في الداخل الفلسطيني" (أي غير القادمين كفدائيي دوريات)، لم يتعرفوا بحق على تجربة المطاردة، إلا بعد انتشارها كظاهرة في منتصف ثمانينيات القرن العشرين، وخاصة بعد اندلاع انتفاضة الحجارة في العام 1987، وإن مارس بعضهم ظاهرة الاختفاء. فيما تصاعدت هذه الظاهرة في الفترة الممتدة بين نهاية الانتفاضة الأولى وتأسيس السلطة الفلسطينية في العام 1994 والعام 2000، وبخاصة ضد المناضلين من حركات المقاومة الإسلامية، لتبلغ ذروتها بعد اندلاع انتفاضة الأقصى في العام 2000.

يعمل هذا الجزء من الدراسة، فيما يلي، على تناول المطاردة في هذه الحقب استناداً إلى 26 مقابلة شخصية مفتوحة مع أربع فئات من المطاردين، هي: المطاردون الذين عاصروا الانتفاضة الأولى 1987-1993؛ والمطاردون الذين كانوا في فترة تطبيق اتفاقية أوسلو 1994-1999؛ والمطاردون الذين عاصروا الانتفاضة الثانية 2000-2004، والمطاردون في الفترة 2005-2018. ومن الجدير بالذكر أن عدداً من المطاردين الذين تمت مقابلتهم من هذه الفئات الأربع، تمتد تجربتهم في المطاردة إلى الحقبة التالية مباشرة لإصدار الميثاق الوطني في العام 1968، وعمليات الدوريات. كما تجدر الإشارة أيضاً، أن المقابَلين، وإن كانوا حالياً من سكان "مناطق السلطة الفلسطينية" أو "الضفة الغربية وشرق القدس"، إلا إنهم ينحدرون تاريخياً من أنحاء مختلفة من فلسطين التاريخية، وينتمون إلى تنظيمات مختلفة من فصائل العمل الوطني.

ومن جانب آخر، فقد اعتمدت المقابلات مع هؤلاء المطاردين، الذين خاض معظمهم كذلك تجربة الأسر في السجون الصهيونية، على مجموعتين من الأسئلة. تتمثل المجموعة الأولى في أسئلة عامة حول تجربة المطاردة التي أدَّت إلى تجربة في الأسر، وهي الأسئلة الواردة في "ملحق رقم (1): أسئلة عامة حول التجربة النضالية والاعتقالية والتحررية،" والذي تناول سبع مراحل، هي: مرحلة ما قبل الاعتقال، ومرحلة الاعتقال، ومرحلة التوقيف والتحقيق، ومرحلة ما بعد التحقيق-المداولات والحكم، ومرحلة الأسر، ومرحلة التحرر، ومرحلة ما بعد التحرر. وقد هدفت هذه الأسئلة العامة إلى فحص اختمار تجربة المطاردة وذكرياتها من خلال تجربتها في الخيار "الأهون" وهو الأسر، وليس الشهادة، عبر الشهادات المتوازية لمطاردين التقوا في الأسر بعد أن كانوا مطاردين. وأما المجموعة الثانية، فتتمثل في أسئلة محددة تستهدف التعرُّف على تجربة المطاردة بسياقاتها وتفاصيلها السياسية، والأمنية، والاجتماعية، والشخصية، كما وردت في "ملحق رقم (2): أسئلة المقابلة المختصّة بتجربة المطاردة."

وعلى المستوى التفصيلي، طرحت في المقابلات أسئلة لمعرفة واقع المطاردة بكل تفاصيلها من حيث الظروف التي أدَّت إليها، والحوافز التي كانت لدى المطارد للمخاطرة، ومعرفة مدة المطاردة، وما واكبها من تحديات وصعوبات واجهت المطارَد أو عائلته وأصدقائه، والقرارات التي كان عليه أن يتخذها في أوقات حرجة. كما تم التعرف على دور الحاضنة الشعبية للمطاردين، وكيف ساهمت في إبقاء حالة المطاردة فترة أطول. والتعرف على الاستراتيجيات الأمنية التي كانت لدى المطاردين، وكيفية اعتمادهم على المعلومات من الخبرة والتجارب السابقة. ومعرفة دور العملاء في الكشف عن المطاردين ومعاونتهم للاحتلال. وكذلك التعرف على دور المجتمع الفلسطيني، ودعمه لفكرة المطاردة، وتوفير الحماية لهم، وتوفير أو انعدام الحماية الأمنية والقانونية لهم من قبل السلطة الفلسطينية.

ولعله ينبغي، وقبل نقاش مخرجات المقابلات وتحليلها نوعياً، الإشارة إلى أمرين لافتين. أما الأمر الأول، هو غياب المرأة عن ظاهرة المطاردة، عموماً، وربما يعود هذا إلى "الطبيعة" المحافِظة للمجتمع الفلسطيني، أو لطبيعة توزيع الأدوار الثورية في حركات المقاومة الفلسطينية، رغم وجود آلاف الشهيدات والأسيرات اللواتي مارسن العمل المسلح جنباً إلى جنب مع الرجال. وأما الأمر الثاني، فهو تميز ردود مطاردي انتفاضة الحجارة 1987 على عدة مستويات، من حيث: الذهاب لخيار المطاردة بعد تصفية عملاء، وليس بعد أعمال مقاومة بشكل مباشر ضد العدو الصهيوني، والتفاوت الكبير بين ظروف المطاردة بين منطقة وأخرى في المدن والقرى والمخيمات الفلسطينية من حيث طبيعة هذه المناطق، وشعور المطاردين بعدم نيلهم "ما يستحقون" من مكانة في تنظيماتهم بعد انتهاء تجربة المطاردة، سواء بالأسر والتحرير، أو بـ"العفو" بمن قبل الاحتلال عند تأسيس السلطة الفلسطينية، رغم وجود التفاف شعبي وتقدير عالٍ للمطارد في حاضنته الشعبية.

أما فيما يلي، فنورد المحاور الثلاثة التي تناولتها المقابلات مع المطاردين الستة والعشرين الذين استهدفتهم المقابلات، دون إشارات تفصيلية لهوياتهم، وذلك تبعاً لرغبتهم في السرية. وتتطابق هذه المحاور، تقنياً، مع مراحل المطاردة، من حيث: أسباب المطاردة، وحيثيات المطاردة، وما بعد المطاردة.

3.3.1 أسباب المطاردة

هناك عاملان أســاســيان يمكن اعتبارهما من أســباب المطاردة، وهما الظرف الســياسي العام، والمعاناة والتحديات الاجتماعية. يظهر من كل المقابلات، دون استثناء، أن المعاناة التي يعيشها الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال الصهيوني، وحالة الصراع بين حركة التحرر الوطني الفلسطيني ودولة الاستعمار الصهيوني "إسرائيل"، كانت هي المظلة التي وفرت كل أســباب الانخراط في العمل الوطني ســواءً تحت أحد ألوية فصائل منظمة التحرير الفلسطينية، أو حركات المقاومة الإسلامية، أو العمل المسلح بشكل مستقل. وقد أورد المقابلون أســباب: المعاناة، والتهجير، والحصــار، والقتل، وهدم البيوت، وارتكاب المجازر، وأعمال القمع اليومية، كمحفّزات مباشرة للانخراط في العمل المســلح، وبالتالي "الترشُّــح" للتحوُّل إلى مطارد من قبل قوات الاحتلال الصهيوني حين لا تنجح في إلقاء القبض على المناضل، ولا تتمكن من اغتياله.

وقد ظهر من المقابلات أن الواقع الســياسي الذي بدا أنه آخذ بالســوء مع مرور الزمن كان المحفز الأكبر لجموع الفلسطينيين للانضمام للمقاومة منذ تصاعد الكفاح المسلح في العام 1968، وخاصة بعد سيطرة الاحتلال الصهيوني على الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس المحتلة، حين صارت كل فلسطين التاريخية في قبضــة العدو بعد نكســة العام 1967. وقد شــهدت الفترة الممتدة بين الأعوام 1968-1988، احتفاءً كبيراً بالفدائيين القادمين من خارج فلســطين في عمليات الدوريات، فيما ســاند الفدائيون الذين يتم تنظيمهم داخل فلســطين إخوانهم ورفاقهم، وشــكل أهالي المناضــلين حاضــنات مباشرة للمطاردين وغير المطاردين من فاعلي الكفاح المسلح في هذه الحقبة. أما فترة الانتفاضة الأولى، فاعتبرها المقابَلون البداية الفعلية لظاهرة المطاردة، حيث أراد الاحتلال كســر شــوكة المقاومين الذين اختاروا تغيير قواعد اللعبة خلال الانتفاضــة من ضرب الحجارة وأعمال العصــيان المعروفة، إلى اســتخدام الســلاح الناري، حيث ظهرت أنوية العمل المســلح مثل مجموعات "الفهد الأســود" و"النسر- الأحمر"، وغيرها. وقد تصــاعدت ظاهرة المطاردة مع تحوُّل العمل المسلح إلى خيار العمليات الاستشهادية في الفترة المحيطة باتفاق أوسلو وتأســيس الســلطة الفلســطينية 1993-1994، حيث لاحق الاحتلال من اتهمهم بالتخطيط والرعاية والمســاعدة في تنفيذ تلك العمليات. ورغم خبوّ ظاهرة المطاردة، من حيث عدد المطاردين في الســنوات التالية أي بين 1995-1999، إلا أن اندلاع انتفاضة الأقصى في العام 2000 تسبب في تصاعد غير مسبوق في عدد المطاردين، وتحديداً بعد تغوُّل العدو الصهيوني في اقتحام المدن الفلسطينية، وإعادة احتلالها عبر عملية "الســور الواقي" وغيرها. وقد أدى ذلك إلى حالة من الغليان لدى الشــعب الفلســطيني ككل، وحفَّز النواة الصــلبة من مقاوميه على المقاومة التي لقيت رعاية وتغطية من المســتوى الســياسي في ظل وجود

الرئيس الراحل ياسر عرفات. وقد انطلق معظم المقاومين، الذين صـــاروا مطاردين، نحو هذا الخيار لقناعتهم بعدالة قضيتهم بدرجة أولى، ومدفوعين من واقع معاناتهم الفردية والجماعية بدرجة ثانية.

وقد أورد المقابَلون أسـباباً، بصـياغات مختلفة، لكنها تشـير لما تم ذكره آنفاً، زجَّتهم في خانة "المطارَد"، منها: "معاناة الشعب الفلسطيني منذ النكبة في العام 1948 واحتلال الأرض وتهجير أصحابها الشرعيين، والانخراط بالعمل الثوري منذ تأسـيس منظمة التحرير الفلسـطينية والمشـاركة بالعمل العسـكري ضـد الاحتلال بهدف الخلاص من الاحتلال، ومواجهة الاحتلال دفاعاً عن أرضـنا وشـعبنا للوصـول إلى تحرير الأرض وإقامة الدولة الفلســطينية وعاصــمتها القدس الشــريف، والعمليات الإجرامية والقتل والتنكيل بشـعبنا من قبل الاحتلال واسـتشـهاد الكثير من الأصـدقاء وأبناء العائلة، وعدم وجود حل سـياسي عادل للقضـية الفلسـطينية فترة ما قبل الانتفاضـة الأولى وتنصـل الاحتلال من الاتفاقيات الدولية وتنكره للحق الفلسـطيني، وغطرسـة الاحتلال وعمليات القمع لشـعبنا وسـياسـة العقاب الجماعي، والإبعاد للناشـطين السياسيين والمشاركين في العمل والنضال الوطني، وحالة المطاردة بحدّ ذاتها من قبل الاحتلال للناشطين في العمل الوطني، والحالة السياسية فترة الانتفاضة الثانية، وتعنُّت الاحتلال في تنفيذ اتفاقية أوسلو وحالة الإحباط التي كان يصنعها الاحتلال لدى الشباب الفلسطيني، والحياة التي مرَّ بها أبناء شعبنا في المخيمات وحالة البؤس والحرمان التي عانوها منذ طفولتهم، فالعمل النضـالي شـاركت به جميع الفئات العمرية من أطفال وشيوخ ونساء ورجال، والظروف الاجتماعية والاقتصادية التي كرّسها الاحتلال لقمع إرادة شعبنا في التحرر والخلاص من الاحتلال، ومحاولة الاحتلال طمس وإنهاء الهوية الاجتماعية والثقافية للشــعب الفلسطيني عبر الحقب التاريخية المتعاقبة، والممارسات التعسفية والتخريب والقتل والتدمير التي مارسها الاحتلال ضـدنا، والإذلال والقتل والتعذيب والعقاب الجماعي وهدم البيوت الذي مارسـه الاحتلال ضـد شــعبنا، وإدامة الحالة الثورية التي كانت في وجدان الفلســطينيين وما واكبها من تثقيف أسري واجتماعي لإيجاد حالة من الوعي الجماعي للحق الفلسطيني كان من أبرز الاحداث التي حفزت العمل الثوري والنضال ضــد الاحتلال، والإيمان بالحق بالحياة الكريمة بحرية على أرضــنا، واســتعادة الوطن الســليب الذي تم اغتصابه بقوة السلاح، ورد الفعل الصحيح هو النهج الثوري الذي تتوارثه الأجيال."

لقد كان للتحديات الأسرية والعلاقات الاجتماعية، سواء المعلنة أو المجهولة، دور هام في اتخاذ قرار العمل الوطني، ومن ضمنه عملية المطاردة. ففي حين أدَّت سياسات الاحتلال في الاعتقال والملاحقة والقمع وهدم البيوت، إلى إحجام من تبقى من أفراد الأسر عن حمل السلاح لإعالة الأسرة والإيفاء باحتياجات الأسرى منها وعائلاتهم، أدَّت في حالات أخرى إلى تصعيد حالة الغضب، وتحفيز من تبقى كذلك على حمل السلاح

والدخول في حالة المطاردة بعد أداء الواجب الوطني. وفي الحالتين، يعلم الجميع مقدار الثمن الباهظ الذي سيدفعه الفلسطيني مقابل انخراطه في العمل الوطني، وتحديداً الكفاح المسلح لغرض الدفاع عن الشعب ودحر الاحتلال الصهيوني. ومن ناحية أخرى، تبيَّن من خلال المقابلات أن وجود مطارد في الأسرة هو أحد عوامل تحويل الظاهرة إلى ثقافة، إذ يُطارَد من الأسرة الواحدة أكثر من فرد، كما هو الحال في الاستشهاد، والإصابة، والأسر. وأما الأثر على ديمومة الأسرة، الفيزيائية والاجتماعية والعاطفية، فلا شك أن تجربة المطاردة، كما يفيد المقابَلون، أسهمت في تصليبها وتقويتها رغم ما يبدو خارجياً مما يمكن أن تتسبب به التجربة من هشاشة لبنية الأسرة نتيجة غياب الأب، أو الزوج تحديداً، لفترات طويلة. إلا أن "التفاهم" و"التفهُّم" كانا أكثر التعبيرات تكراراً على ألسنة من خاضوا تجربة المطاردة، بل يتجاوز الأمر ذلك بكثير إذ إن الشعور الغالب هو الخوف والخشية علي حياة المطاردة، ومحاولة تقديم كل ما أمكن من دعم لينجو من الوقوع في قبضة العدو، أو يتم اغتياله.

3.3.2 حيثيات المطاردة

ولكن هذه الصورة المشرقة من داخل بيوت المطارَدين لا يمكنها أن تخفي المعاناة اليومية على مستوى تأمين حاجيات الأسرة من ناحية، والمطارد من ناحية أخرى، إن كان الشخص المكلَّف بالتواصل معه من أفراد الأسرة نفسها. وقد زاد من هذه المعاناة، كما يفيد المطارَدون، المضايقات شبه اليومية من قبل قوات الاحتلال التي لا تكف عن مداهمة بيوت المطاردين وأقاربهم، وأصدقائهم، لغرض البحث عنهم، أو لإيصال تهديداتها بالاغتيال وهدم المنزل، وممارسة الترويع على أفراد العائلة والتخريب ونهب الأموال والممتلكات، أو اعتقال بعضهم، للضغط على المطارد. كما ورد في بعض المقابلات، أن ممارسات التضييق في لقمة العيش، تمثلت، على سبيل المثال لا الحصر، بمنع منح تصاريح العمل لأقارب المطارد، أو إقالتهم من وظائفهم الرسمية في فترة انتفاضة الحجارة حيث كانت "الإدارة المدنية" مسؤولة عن قطاعي الصحة والتعليم. ومن ضمن تلك السياسات الضاغطة، حرمان الأقارب من السفر، أو الحرمان من التعليم عبر منعهم من السفر، أو العلاج في المستشفيات الإسرائيلية في فلسطين المحتلة في العام 1948. وفي أقسى الحالات، كانت حالة المطاردة الشرسة تحول دون قيام المطارد من المشاركة في أفراح أهله وأتراحهم، الأمر الذي تركزت عليه "صورة الانتصار" لوحدات المستعربين في فيلم "فوضى" مثلاً، والذي يظهر عمليات الهجوم من قبل المستعربين الصهاينة على عرس أو جنازة للنيل من أحد المطاردين إن اختار مشاركة أهله في فرحهم أو حزنهم.

ورغم كل هذه الممارسات القمعية الفاشية والضغوطات التي كانت تقوم بها قوات الاحتلال الصهيوني، إلا أن دور الحاضنة الاجتماعية (العائلة، الحي، المدينة) في توفير المخبأ والرعاية كان مشرِّفاً. لكن من الملاحظ من إجابات المقابَلين، أن الحاضنة الاجتماعية أكثر صلابة في حقبة الانتفاضة الأولى وما تلاها 1987-1999، ويعزو البعض ذلك لعدم استفحال القبضة الأمنية الصهيونية وأنظمة الرقابة في حينه، ولعدم وجود أي اتفاقيات سياسية أو أمنية (تنسيق أمني مع السلطة الفلسطينية). فقد كانت الحالة النضالية في حينه عالية، والحاضنة الشعبية قوية، وكانت الجهوزية التامة للتضحية الطوعية متوفرة لتأمين المطارد وتأمين احتياجاته، ما جعل عملية الاختفاء خلال المطاردة طويلة وناجحة. وقد نبع ذلك من إيمان الأهالي، والحاضنة الشعبية عموماً، بعدالة القضية وقداسة عمل المطارد المناضل ضد الاحتلال. وقد وفرت هذه الحاضنة للمطارد: التغطية الفيزيائية، والمعلوماتية، والاحتياجات اليومية من مأكل ومشرب، فيما وفَّرت الخلايا التنظيمية (وليس التنظيمات بالضرورة من باب الاحتياطات الأمنية)، الدعمَ اللوجستي من عتاد وغيره، ومعلومات دقيقة، وتغطية حين تكون هناك ضرورة للانتقال من مخبأ إلى آخر. وبهذه الصورة التي ينقلها ويؤكدها المقابَلون الذين خاضوا تجربة المطاردة، سواء عن عائلاتهم المباشرة أو عن الحاضنة الاجتماعية في المدينة والقرية والمخيم، يتضح أن حضور المطارد وصورته كانا إيجابيين في معظم الحالات، وكانت حالة المساندة هي السائدة. ولكن ذلك لم يمنع من وجود حالات، حتى في نفس حالة المطاردة الواحدة، وقد عزا المطارَدون المقابَلون ذلك إلى الاختلاف في الطبيعة البشرية، ذلك أن البعض يخشى من تقديم المساعدة، أو يحجم عنها نتيجة للخوف من تبعات الممارسات القمعية والعقابية من قبل قوات الاحتلال الصهيوني وأجهزته الأمنية.

وأما التفاصيل العينية لتجربة المطاردة، من حيث المدة، والاحتياطات الأمنية، ودور العملاء الكارثي في الإبلاغ عن المطاردين، والإرهاصات والمؤشرات حول أن عملية المطاردة باتت ساخنة، وأن المطارد بات على وشك الشهادة أو الأسر... فتختلف اختلافاً كبيراً بين كل تجربة وأخرى من تجارب المطاردة: تبعاً لشخصية المطارد، والبيئة العائلة، والحاضنة المجتمعية، وطبيعة مكان المخبأ إن كان مدينة أو قرية أو مخيماً، والمخبأ نفسه سواء كان منزلاً مستقلاً، أو شقة في عمارة، أو كهفاً، أو مغارة، أو مقبرة، أو غير ذلك، وتبعاً لحالة الطقس من حيث الحر والبرد، وتوتر الظرف السياسي والعسكري والأمني العام، ما ينعكس على تشديد القبضة الأمنية من حيث الحواجز، الدائمة والطيَّارة، والمسيَّرات (درونز)، وتكثيف النشاط الاستخباري عبر العملاء على الأرض... وهكذا. وقد تراوحت فترات الاختفاء والمطاردة بين شهر واحد وست سنوات (على الأقل في العينة المدروسة)، مع أنها تجاوزت في تجارب أخرى عشر سنوات.

ولا شك أن هذه الظروف الخاصة بكل تجربة مطاردة على حدة، أثَّرت في طبيعة الاحتياطات والإجراءات والاستراتيجيات والقرارات الأمنية التي يتخذها المطارد، سواء على مستوى أمنه الشخصي، أو أمن مجموعته، أو أمن حاضنته الاجتماعية، وبقية أبناء شعبه. ونتيجة لوجود عدد هائل من المتغيرات في دائرة وجود المطارد، أوضح المقابلون أن قرار تغيير المخبأ مثلاً، لم يكن في معظم الحالات قراراً فردياً، بل تعلَّق بعملية رصد من قبل المساعد، الذي يكون شخصاً واحداً لا أكثر حتى لا يذيع سرَّ المطارد. وكذلك فإن التعامل مع أي جهة تنظيمية ذات علاقة بالمطارد كان يتم عبر المساعد، وهذا ينطبق أيضاً على توفير الاحتياجات، أو إيصال الرسائل. ولكن القاعدة العامة الأساسية، والتي اشترك فيها كل المقابَلين دون استثناء وبغض النظر عن الحقبة التي طوردوا فيها، هي الامتناع عن استخدام وسائل الاتصال أو التواصل، وكل ما له علاقة بتكنولوجيا يمكن تتبعها، والاستفادة من المعلومات الأمنية، والتحقق منها حتى لو بطريقة الحدس والمقارنة بتجارب مطاردة أخرى اطلع عليها المطارد. ومن الجدير ذكره أن بعض تلك المعلومات الاستخباراتية كان مصدره أجهزة الأمن الفلسطينية، وتحديداً في حقبة انتفاضة الأقصى، وقبل رحيل الرئيس ياسر عرفات. وبطبيعة الحال، فقد لوحظ أن قرارات المطارد بدأت تأخذ منحى معقداً وبشكل تصاعدي منذ 1988-2018، وذلك للتفوق التكنولوجي الذي أدَّى في أحيان كثيرة إلى تفوُّق استخباراتي لدى أجهزة أمن العدو الصهيوني، وللتعقيدات الكبيرة التي أضافتها تقنيات الرقابة الإلكترونية من كاميرات، وأجهزة مراقبة اتصالات، وعمليات اختراق معلوماتية، ومسيَّرات. وفي أحيان أخرى كان سببها التنسيق الأمني.

وقد لوحظ أن معظم المطاردين الذين تمت مقابلتهم اعتمدوا على الحدس في اللحظات الصعبة حين أحسوا باقتراب العدو منهم، ولكنّهم كانوا يبذلون قصارى جهودهم أن تكون تحركاتهم محسوبة وقراراتهم محسوبة، وخاصّة في ظل خشيتهم ليس من الاحتلال فقط، بل ومن عملاء الاحتلال، أو من الفضوليين في المجتمع الذين قد يكون وجودهم في غاية الخطورة حتى دون أن يقصدوا إيذاء المطارد. فحين كان الاحتلال يعتقل أحد أفراد المجموعة، أو المساعد للمطارَد، أو يكشف تقريراً إخبارياً عن نشاط مقاوم... كان المطاردون يتخذون إجراءات احترازية، لكنها لم تكن دائماً صحيحة، لأن أفعال العدو تلك كانت مصممة لدفع المطارد للخروج من مخبئه. وقد أشار المقابَلون أنه رغم تقدم العدو تكنولوجياً، وسيطرته الاستخبارية الكبيرة على الاتصالات والمواصلات والجو، إلا أن العملاء لعبوا دوراً خطيراً في تضييق احتمالات المعلومات الهائلة التي لدى أجهزة العدو. كما أن نوعاً خاصاً من العملاء، وهم العملاء المزروعون في داخل تنظيم معين، كان لنشاطهم نتائج كارثية أدَّت لاستشهاد الكثير من المطارَدين وأسر الكثيرين، ذلك أنه إن تمكن هذا الفرد العميل من اختراق خط أمني محدد، فإن تلك ستكون نقطة النهاية بالنسبة للمطارد أو لخليَّته كاملة. وأما النوع الثالث من العملاء، فهو التقليدي الذي يراقب حركة الأهل والأصدقاء لتضييق الدائرة وحصرها على

مساعد المطارَد، وبالتالي الوصول إلى المطارَد، ما ينجم عنه تحرُّك قوات العدو لاغتياله سواء بالتصفية في مواجهة مباشرة، أو زرع متفجرات في أداة أو شيء يتم توصيله له، أو اغتياله بمسيَّرة أو طائرة، أو حتى على يد العميل نفسه.

3.3.3 ما بعد المطاردة

كما تم القول سـابقاً، فإن المطارَد أمامه ثلاثة احتمالات: مواصـلة المطاردة، أو نيل الشـهادة، أو الأسر. أما الاحتمال الرابع، وهو العيش بشـكل "طبيعي"، فهو شـبه مسـتحيل، ذلك أن المطارَدين المقابَلين أكدوا أن مفهوم "العفو" الذي تمنحه أجهزة الأمن الصـــهيونية هو مفهوم مضـــلل ومحدود، وقد أثبتت التجربة التاريخية ذلك. ورغم منح هذا "العفو" عبر السـلطة الفلسـطينية أو وسـيط عربي أو أجنبي، سـواء في حالة الأسر أو المطاردة، إلا أن إسرائيل نكثت به وأخلفت وعدها باغتيال من تمنحه العفو، أو إعادة أسره، وذلك يفيد، كما أجمع المطاردون المقابلون، ودون استثناء على أن مفهوم "الحماية القانونية"، هو كذلك مفهوم مضـــلل ولا وجود له، بغض النظر عمن يدَّعي أنه بإمكانه توفيره للمطارد أو الأســير وقد أفلت من قبضـــة العدو. ولعل ما يعزز من هذا الرأي لدى المطاردين أنه لا توجد أية اتفاقية مع دولة الاحتلال إلا وتم نقضها، حتى لو كانت برعاية الصليب الأحمر أو غيره من المؤسسات العالمية، والأطراف الدولية.

وفي هذه الحالة، أوضح المطارَدون المقابَلون، وخاصة من المطاردين الذين خاضوا كذلك تجربة الأسر، ولأكثر من مرة، أن أعمارهم حين خرجوا من الأسر، وواقعهم الاجتماعي حتَّم عليهم الانخراط في الحياة الاجتماعية وتأسيس أسرة، والتي بدورها تأتي بانشغالاتها وهمومها والتزاماتها معها. ومن ضمن هذا الواقع الجديد، محاولة الأسير-المطارد وقد تحرر، أو المطارد-"المعفو عنه"، مواصلة مسيرته التعليمية والتي وصلت في أحيان كثيرة لنيل درجات علمية متقدمة سواء على مستوى الماجستير أو الدكتوراه. هذا بالإضافة إلى ميل من خاضوا هذه التجربة إلى الحصول على أمن وظيفي سواء داخل مؤسسات السلطة الفلسطينية، أو غيرها. ولكن رغم هذا كله، فقد أكد المطارَدون المقابَلون على أن استمرار السياسات العدوانية للاحتلال، وعدم حل القضية الفلسطينية، واستدامة شرور الاحتلال وعربدة المستوطنين، في ظل الانهيار والتطبيع العربي والنفاق العالمي، فإنّ النضال الفلسطيني لا زال، وسيبقى، مستمراً، وبالتالي فإنّ تجربة المطاردة ستستمر كذلك بوصفها أحد أساليب المناضلين الفلسطينيين في عدم الوقوع في قبضة العدو.

الفصل الرابع: الصياد والتنين في جنين

4.1 هوية أولى للتنين

أتناول في هذه الشهادة تجربة حياتية نضالية عشتها مع الاحتلال، وأعبّر فيها عن تجربة المطاردة بين الصياد والتنين، وهي تجربة متوارثة من الأجداد إلى الأحفاد في فلسطين.

ولدت في سنة 1976 لعائلة تنحدر من قرية وادي الحوارث بالقرب من قيسارية قضاء حيفا، والتي هُجّرت في سنة 1947، قبل النكبة. لقد عانى أجدادي النكبة بجميع تفصيلاتها أكثر من مرة: من وادي الحوارث إلى قيسارية أول مرة، ثم من قيسارية إلى مخيم جنزور بالقرب من جنين. وفي سنة 1984، وبسبب سيل جارف اضطرت العائلة إلى الهجرة مرة أُخرى إلى مخيم جنين حيث استقر جداي لأمي وأبي، (أ. ز.) و(م. ز.)، وهما أبناء عمومة، وكلاهما التحق بالكفاح المسلح.

سمعت من والدي أن جدي (أ. ز.) أصيب خلال المعارك مع العدو، بينما أُلقي القبض على جدي (م. ز.) وأُسر في سجن شطة قضاء بيسان المحتلة، حيث تمكن هو ومجموعة من الأسرى من الفرار من دون أن يأبهوا بملاحقة العدو، بل كل ما كان يشغل بالهم هو صعوبة العودة إلى بيوتهم في المخيم، فأيديهم فارغة من أي رزق لذويهم، أو أي شيء يُفرح أطفالهم. ولهذا اقترح جدي عليهم أن يقوموا بعملية فدائية، ويقتحموا مغتصبة كانت في طريق عودتهم اسمها "مشتحفوت"، وقد استطاع جدي استرداد بعض ما سُرق منه في سنة 1948: ثلاث بقرات عاد بها إلى المخيم.

خلال تلك الفترة اشتد العمل العسكري، وعمدت قوات الاحتلال إلى هدم منزل جدي (م. ز.)، وهو ما اضطره إلى الهجرة إلى الأردن مع أبنائه، حيث سكن في وادي اليابس، المعروف اليوم بـ "وادي الريّان"، على الحدود مع بيسان المحتلة. ومثلما حدّثتني أمي، فإن جدي قاد الكفاح المسلح في منطقة الأغوار، وفي أثناء المعارك، هدمت الطائرات الصهيونية منزله. وبعد أحداث أيلول الأسود في الأردن بين الجيش الأردني والفصائل الفلسطينية في سنة 1970، حكم النظام الأردني عليه بالإعدام، فاضطر إلى الفرار إلى ألمانيا حيث طارده الموساد الإسرائيلي حتى استشهد، تاركاً عائلته في الأردن.

أمّا عائلة أبي فاستقرت في مخيم جنين، وقد أنهى دراسته الثانوية في مدينة جنين، ثم التحق بالجامعة الأردنية، فدرس الأدب الانجليزي، وتزوج من ابنة عمته (م. ز.)، وهو الزواج الذي أورثه هموماً إضافية تتعلق بلمّ الشمل الذي استغرق الحصول عليه تسعة أعوام تخللتها مساومة من طرف "الإدارة المدنية الإسرائيلية" لدفعه إلى التعاون معها في مقابل الحصول على لمّ الشمل. وقبل الحصول عليه، كانت والدتي تسافر إلى الأردن مرة كل ثلاثة أشهر، هي فترة "تصريح الزيارة". وقد أنجبت أمي ستة أبناء وابنتين، الأمر الذي زاد في معاناتها، إذ كانت أحياناً تأخذنا معها، وأحياناً أُخرى تتركنا في المخيم، وكانت خريطة ذلك الألم ترتسم على وجهها.

عشت في بيت لا حديث فيه سوى عن الثورة والغضب من الاحتلال، فالسياسة كانت محور كل شيء؛ كنت أسمعهم يتحدثون عن رجال الدين والماركسيين والقوميين العرب وحركات التحرر في العالم. كنت طفلاً أسمع ولا أفهم، لكن أحاول ربط ذلك بما يجري على الأرض من أحداث شكلت في مجملها ذاكرة غنية سمحت لي، حين كبرت وقرأت، بأن أُسقطها على واقعي. فمثلاً، عندما درست "القومية وسياسات الهوية"، عادت بي الذاكرة إلى سنة 1988، حين أقدم الاحتلال على هدم منزلنا في المخيم وكان معلقاً على أحد جدرانه ثلاث صور للقادة الراحلين أبو عمار وجمال عبد الناصر وأبو جهاد. وللمفارقة، فإنه جرّاء هدم المنزل، سقطت صورتا أبو عمار وصورة أبو جهاد، بينما لم تسقط صورة جمال عبد الناصر. سألت أبي: "ليش صورة هذا الزلمة ما سقطت؟" فأجاب: القوميون لا يسقطون. ثم أردف مبتسماً: هذا جمال عبد الناصر أبو القومية العربية الذي يسعى لوحدة الأمة.

لكن عندما قرأت لسيد قطب، "معالم في الطريق"، استحضرت من الذاكرة صورة أُخرى لأحد جيراننا عند هدم منزله؛ فهذا الجار لم يَرُق له حديث أبي عن عبد الناصر، كما أن زوجة هذا الجار كانت تحمل بيدها "شوبك العجين" وتشير به إلى صورة عبد الناصر التي لم تسقط وتشتمه. لم أدرك حينها أن هناك تنظيمات وتيارات بينها اختلافات كبيرة، وإنما فهمت ذلك لاحقاً. وبفضل ما تكتنزه ذاكرتي، عرفت أن والدي كان من ثوار القوميين العرب، أمّا جارنا وزوجته، فكانا من المؤيدين لحركة الإخوان المسلمين.

4.2 زمان التنين ومكانه

بالعودة إلى مخيم جنين، أصل الحكاية، فقد انقسم شباب المخيم، بعد طردهم وتهجيرهم من أراضيهم في سنة 1948، إلى ثلاث فئات: فئة سلاحها في مواجهة الاحتلال هو العلم والكتاب، وأُخرى سلاحها ألعاب

القوى وبناء العضلات في نادي المخيم، وثالثة من البسطاء والعمال الباحثين عن قوت يومهم. كان نصيب أبي من الفئة الثالثة، فشهادته في الأدب الإنجليزي لم تسعفه في العمل في مجاله العلمي، لأن وزارة المعارف الإسرائيلية آنذاك رفضت قبوله موظفاً في المدارس، كما دفعت وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى (الأونروا)، إلى طرد مَن يعتبرهم الاحتلال أسرى أمنيين، وعدم توظيف مَن هو ضمن فئة الأسرى، فاضطر إلى العمل داخل أراضي 48، وفي المساء كان يعمل مدرساً للغة الإنجليزية، مع أنني لم أسمعه يتحدث بها مع طلابه بقدر ما يحدثهم عن الاحتلال وطرق مقاومته. سألت أمي ذات مرة، وباستغراب: هل يعلّم والدي الطلاب الإنجليزية، أم كيفية مقاتلة الاحتلال؟

لاحقاً أدركت أثر وطنية أبي، والتي انعكست عليّ شخصياً، إذ كانت علاماتي متدنية جداً في الإنجليزية التي كنت أنجح فيها بصعوبة من الابتدائية حتى الدراسات العليا!

لقد أعاد إليّ نقاش الهوية، ومعرفة حدود الذات والآخر، تفسير ذاكرتي. فقد بدأت أولى معاركي في ذاتي عندما اقتحم جنود الاحتلال منزلنا في الساعة الثالثة فجراً في سنة 1982، ولمست في حينه حجم غضب أبي وأعمامي وأصدقائهم لتزامن ذلك مع العدوان على لبنان واجتياح بيروت. رأيت وحشية جنود الاحتلال في أثناء اقتحامهم بيتنا، وعبثهم بأشيائنا، وعربدتهم واستقواءهم على الصغير والكبير، والفزع الذي زرعوه في نفوسنا وهم يعتقلون أبي، ويضعونه عاماً في السجن الاحترازي. كان هذا الامتحان هو البذرة التي تفتحت في ذهني لأعرف ذاتي، ومَن نحن، ومَن هم.

كانت أول مرة أرى فيها الدم وأنا طفل حين كنتُ مع إخوتي. كان أبي مع أصدقائه، وفجأة تلقينا خبر إصابة ابن عمتي برصاص الاحتلال. هرع والدي إلى المطبخ وتناول ما فيه من أدوات حادة، ولحق بأصدقائه جرياً إلى المستشفى. لحقت به، ورأيت الدم ينزف من جرح ابن عمتي في قدمه، وعندما اقتحمت قوات الاحتلال المستشفى لاعتقاله، احتفظ أصدقاء والدي بالسكاكين في حيازتهم، الأمر الذي أدخل الجميع في نوبة ضحك هستيرية، بعد انصراف جيش العدو!

في سنة 1988، اقتحم جيش الاحتلال المخيم وهدم منزلنا، لكن والدي قرر ألّا نترك المكان، فالمكان لا يمكن هدمه، أمّا المنزل فيمكن بناؤه من جديد. كانت انتفاضة الحجارة قد بدأت، وكنت في الثالثة عشرة، وفي 24 أيار / مايو 1988، انطلقت تظاهرة من أمام مدرستي التابعة لوكالة الأونروا، وأُصبت خلالها بعيار ناري في قدمي. من هناك، بدأت حكايتي مع العمل المقاوم، إذ أكسبتني إصابتي اهتماماً بالغاً من التنظيمات

الفلسطينية، وشعرت بأن ثمة محاولة استقطاب لي إلى حركة "فتح" من جهة أبي، وإلى الجبهة الشعبية من جهة عمي، لكنها حُسمت في نهاية المطاف بانتمائي إلى "فتح".

في نهاية سنة 1989 اعتُقلت لستة أشهر أتاحت لي التعرف بصورة أفضل إلى القضية الفلسطينية والثورة. وبعد أن أُفرج عني، اندمجت في العمل المقاوم، وسرعان ما دخلت في مرحلة المطاردة الأولى، وكانت القرية هي الحاضنة الدينامية في مجتمع المطاردين. فالقرى ومناطق الريف بصورة عامة هي الأكثر أمناً، إذ تسهّل رصد دخول قوات العدو، كما أن النسيج الاجتماعي فيها أكثر ترابطاً، بينما المدينة والمخيم أكثر ملاءمة للعمل العسكري، لأن مواقع الاحتلال ومعسكراته موجودة فيهما.

وعلى الرغم من صعوبة المطاردة في المدينة لأننا عرضة للانكشاف فيها بصورة أسرع، فإننا اضطررنا إلى اللجوء إليها أحياناً، مستخدمين كثيراً من الوسائل البدائية لكشف تحركات قوات الاحتلال، ومنها التواصل بين المطاردين بطريقة مضحكة ربما، وهي الدّق على أعمدة الكهرباء عند دخول قوات العدو! أمّا في القرية، فكان أبناؤها يسهرون على أمن المطاردين وسلامتهم، وإغلاق المداخل بالمتاريس، وقد امتازت المقاومة في الانتفاضة الأولى، ببعدها عن أدوات التكنولوجيا الحديثة.

في سنة 1988، اعتُقل والدي بعد هدم بيتنا، وفي بداية سنة 1990، اعتُقل أخي الأكبر (أ. ز.) وحُكم بستة أعوام. وفي 24 شباط / فبراير 1990 اعتُقلت وحُكم عليّ بالسجن أربعة أعوام ونصف عام تنقلت خلالها بين عدة سجون أذكر منها سجون: طبرية، و"تلموند"، وعسقلان، وبئر السبع، والفارعة، ومجدو، وعتليت، وعناتا، ثم انتهى بي المطاف في سجن جنين المركزي. خلال تلك الأعوام، كانت والدتي تزورنا جميعاً، وفي سنة 1992 اعتقلت قوات الاحتلال مَن تبقّى من أشقائي (ط. ز.؛ ي. ز.؛ ع. ز.)، الأمر الذي زاد في معاناة والدتي سواء على مستوى الزيارات، أو لمتابعة شؤون أبنائها في السجون المتعددة.

أُفرج عن والدي بتاريخ 4 حزيران / يونيو 1992، وكان مريضاً بسرطان الدماغ، وكنت في ذلك الوقت أعيش حالة توجس دائم في سجن جنين، وأتخوف من خبر سيىء سيأتيني عنه لمعرفتي بحالته الصحية الصعبة. وذات يوم، بينما كنت متوجهاً إلى عملي في المغسلة داخل السجن، سمعت مكبر الصوت من المسجد الذي لم يكن يبعد عن السجن سوى بضعة أمتار، يعلن وفاة والدي (م. ز.). لم أصدق أن والدي مات، فكذبت أذني، لكن المنادي كرر الخبر مرتين أُخريين. كل شيء يمكن أن أكذّبه إلّا الموت، ومع أنني استوعبت الخبر، إلّا إنه نزل عليّ كالصاعقة، وكان وسيبقى غصة في القلب.

كانت حياة السجن كثيفة، تعليمياً ونضالياً، فدور التثقف الحزبي كان أساسياً في الحديث عن نشأة حركة "فتح"، ومبادئها، وأساليبها، وخصوصاً الكفاح المسلح الذي كان ينفّذ استراتيجيا الحركة للعمل الثوري. من هنا، بدأت أفهم معنى الانتماء التنظيمي والسياسي إلى حركة "فتح" التي جعلت تناقضها الرئيسي مع الصهيونية. لكن في تلك المرحلة، بدأت تظهر معالم سياسة جديدة نحو "السلام"، أو بمعنى أدق "الاستسلام". شعرت بتناقض بين عقلية الثائر الذي يدرس الثقافة الثورية القائمة على أن الكفاح المسلح هو استراتيجيا وليس تكتيكاً، وبين ما يصلنا من أخبار عن طبيعة المرحلة المقبلة التي ستقضي على التعبئة الثورية، وحتى على إمكان الثورة.

لم نكن في حينه نملك إجابات، وإنما كنا نعيش فوضى فكرية، وكنا متلهفين إلى الحرية التي هي شغلنا الشاغل. كنا نتحلّق حول الراديو منتظرين سماع خبر له علاقة بصفقة إفراج عن الأسرى، أمّا الكراسات والكتب وأدبيات الثورة، فجمعناها في صناديق بلاستيكية ووضعناها على سدّة الحمام! بقينا نتلمّس الأخبار يوماً بعد يوم حتى 24 أيار / مايو 1994، حين أُفرج عني مع مجموعة كبيرة من الأسرى من سجن جنين إلى مناطق السلطة الفلسطينية في أريحا، وفق اتفاق أوسلو. وفي أثناء وجودي في أريحا شعرت بأنني لاجىء من جديد داخل الوطن، فقد كان من شروط الإفراج عدم مغادرة أريحا، إذ كُتب على ورقة الإفراج باللغة العبرية: "متساب قروش لشتحيي إيتوينوميا فلسطينيت"، أي "وضعية الطرد إلى مناطق الحكم الذاتي الفلسطينية."

بعد ذلك، انخرطتُ في الأجهزة الأمنية على غرار جميع الأسرى المحررين، وللمفارقة أسكنونا جميعاً في "كارافانات" وضعوها في ساحة كبيرة تابعة لمنظمة الأمم المتحدة في أريحا، تماماً مثل الخيم، كأن حياة اللجوء قدر مكتوب على جباهنا. ولأن الطبع يغلب التطبع، وطبع الثائر هو التمرد، فقد هربت من مخيم الـ "كارفانات" متجاوزاً جميع الحواجز الإسرائيلية التي كانت على مداخل أريحا، واتجهت متسللاً إلى بيتي في مخيم جنين، فمدينة جنين كانت لا تزال تحت سلطة قوات الاحتلال التي غادرَتْها فيما بعد. ولذا، فقد اضطررت إلى أن أتخفى إذ كنت عرضة للمطاردة طوال فترة إقامتي في جنين، لأنه إذا قُبض عليّ هناك، فسيُحكم عليّ بمدة الحكم السابقة نفسها التي تبلغ أربعة أعوام ونصف عام، والتي لم يكن قد تبقّى منها سوى خمسة أشهر عندما أُفرج عني، وقد وقع كثيرون من المحررين في هذه المصيدة، وأعيدت محاكمتهم.

4.3 التنين والصياد

استمر عملي في السلطة الفلسطينية حتى أيلول / سبتمبر 2000، لكن، قبل ذلك، وقعت أحداث النفق بتاريخ 21 أيلول / سبتمبر 1996، فكأن الروح في هذه الأحداث عادت إلى جسدي، وكأن أدبيات الثورة التي كنا وضعناها في صناديق الذاكرة في سجن جنين ورميناها على سدّة الحمام، عادت كلها إلى الذاكرة، إذ بدأت التعبئة الفورية، واستنهاض الهمم، والتحضير للعمل المسلح، رداً على المجازر والقتل اليومي الذي يمارسه الاحتلال في حقّ أبناء شعبنا. ورأيت الفكرة الثورية تتبلور في عيون الشهيد زياد العامر، قائد كتائب شهداء الأقصى، الذي سرعان ما انخرط في العمل العسكري في انتفاضة الأقصى عبر تشكيل خلايا سرية لتنفيذ عمليات عسكرية ضد قطعان المستوطنين في المغتصبات الجاثمة على أراضي مدينة جنين.

في 24 كانون الأول / ديسمبر 2001 تعرضتُ لانفجار أدى إلى حروق شديدة في الوجه والعينين خلال تنفيذنا إحدى المهمات العسكرية، وكان لهذا الانفجار أثر في كشف هويتي السرية وأسلوبي في العمل العسكري. حينها، بدأت أتعامل مع نفسي كمطارد، فغيرت جميع الاستراتيجيات التي كنت أتّبعها من قبل، وهو ما انعكس على جميع مناحي حياتي، ولا سيما في الحركة والتنقل، فابتعدت عن استخدام السيارة والأجهزة الإلكترونية كالهواتف المحمولة، ولم أكن أبقى أكثر من عشرة إلى خمسة عشر دقيقة في أي مكان. وكانت المدينة لا القرية هي الحاضنة في انتفاضة الأقصى، على عكس ما كانت عليه الحال خلال الانتفاضة الأولى، ذلك بأن المدن الفلسطينية، كانت في هذه المرة، خالية من جيش الاحتلال، وأضحت مناطق سلطة فلسطينية مصنفة "أ" بحسب اتفاق أوسلو، فتجمّع الثوار داخل المدن التي أصبحت نقطة انطلاق للعمل العسكري.

أمّا مخيم جنين، فامتاز بموقعه الجغرافي المتقدم في المدينة، وكان حاضنة للثوار الذين أتوا من البلدات والقرى المجاورة، وقد ساعد في ذلك أهالي المخيم الذين احتضنوا الثوار احتضاناً منقطع النظير، وفتحوا لهم بيوتهم، الأمر الذي ساهم جوهرياً في نجاح العمل المقاوم، وذلك بشهادة العدو نفسه، إذ أطلق على المخيم وصف "عش الدبابير". فالعدو الصهيوني اعتاد تسمية عملياته العسكرية بأسماء اعتقد أن لها مغزى مزدوجاً: رفع الروح المعنوية لديهم، وضربها لدى المقاومين الفلسطينيين، مثل: "لمّ القمامة"، و"البحث عن الجرذ الأسود"، و"أوراق الشدَّة"، و"سقوط الهرم"، و"دموع التنين"، إلخ، والأمر هو نفسه بالنسبة إلى العمليات الكبيرة، مثل: "رحلة بالألوان" التي أطلقها على عمليته التي قام بها في 2 آذار / مارس 2002، حين قصفت قوات الاحتلال المقاطعة في رام الله، وحاصرت مدينة جنين، وضيّقت الخناق على المخيم،

مستخدمة في معركة المخيم قنابل تُظهر بعد انفجارها ألواناً متنوعة على الأسطح والجدران، يغلب عليها اللونَين البنفسجي والزهري المائل إلى الاحمرار. وكان وزير حرب العدو قد صرّح آنذاك: "هناك بعض المقاتلين في مخيم جنين، سنذهب لنقتلهم ثم نعود أدراجنا بسلام." اعتقد جنرالاتهم أنهم ذاهبون إلى رحلة وليس إلى معركة، لكن كانت المفاجأة في انتظار جنودهم في المخيم الذي لم يتمكنوا من دخوله طوال خمسة أيام، بل إن المعركة استمرت إلى ما بعد اليوم الخامس، خلافاً لما كانوا يتوقعونه.

كنت في اليوم السادس، في 6 آذار / مارس، 2002 في أحد أحياء المخيم، وكانت المعركة على أشدها، حين جاء أحد المقاتلين من موقع آخر، ليسألني عن صحتي وعن عينيّ بالذات، لأني كنت أتلقى العلاج حينها. لكني لاحظت من أسئلته ومن شدة اهتمامه بي، أن لديه أخباراً غير سارة يخفيها عني، فسألته: هل أصيب إخوتي بمكروه؟ هل استشهد أحدهم في المعركة؟ قال على وجه السرعة: لا، لا، لكنْ هناك خبر غير مؤكد عن إصابة والدتك بعيار ناري، ويقال إنها بخير، سألته: كيف أصيبت ومن أين؟ قال: برصاصة قناص كان يوجد على الجبل الغربي. كنت أعلم أن أمي ليست في بيتنا، فبيتنا كان يحتضن المقاتلين، وكان عبارة عن نقطة عسكرية للثوار لأهميته الجغرافية. قررت أن أذهب إليها، لكنهم أخبروني أنها نُقلت إلى المستشفى في جنين، وأنه ليس هناك أي اتصالات، وأنني لن أستطيع الوصول إليها لأن الطريق بين المخيم والمستشفى كان مقطوعاً. وبردّة فعل تلقائية، قررت الانتقام، لأنني شعرت في داخلي بأن والدتي استشهدت، فالقناص الصهيوني هو للقتل وليس للإصابة. انتابتني فوضى من الأفكار والمشاعر والأحاسيس، فأنا لا أريد أن أصدق أن والدتي استشهدت، وفي الوقت نفسه لا أريد أن أكذب معرفتي بوحشية الجنود تجاه الكبير والصغير. وكي أهرب من هذه المشاعر المتراكمة قررت الذهاب إلى الجبل الغربي ومواجهة هذا القناص، وعندما وصلت مع بعض الإخوة إلى المنطقة، بدأنا بالاشتباك معه، وحاولت اقتحام المنزل الذي يوجد فيه القناص الجبان، لكن أحد الإخوة المقاتلين الذي شعر بما أنوي فعله وكان لديه خبرة عسكرية، أثناني عن هذا لأنه يعرف أن اقتحام المنزل هو بمثابة انتحار.

في صباح اليوم التالي، الموافق فيه 7 آذار / مارس 2002، انسحب الجيش الصهيوني انسحاباً محدوداً، وتمركز على أطراف المخيم. وكان إلى جانبي بعض الإخوة الذين بلّغوني رسمياً أن والدتي استشهدت، وعلمت أيضاً أنها استشهدت في اللحظة نفسها التي أصيبت فيها، إذ اخترقت رصاصة القناص قلبها مباشرة. وسقط مع والدتي في ذلك اليوم سبعة شهداء، لكن ثلاجة المستشفى لم تكن تتسع لأكثر من أربعة، وكان الهلال والصليب الأحمر قد بلّغانا أن لديهما تصريحاً بالدفن. وبما أن انسحاب الصهيونيين كان محدوداً، والمخيم لا يزال محاصراً، قررت أنا وإخوتي أن تُدفن والدتنا عن طريق الهلال والصليب الأحمر، ولهذا لم يتسنّ لنا

سوى إلقاء نظرة الوداع الأخيرة عليها داخل السيارة، وذلك عندما مرت من شارع المخيم الذي يفصل بين المستشفى والمقبرة، مستغلين فترة وقف إطلاق النار المعلنة لأربع ساعات. استُؤنفت المعركة ذلك اليوم، واستمرت إلى اليوم التالي، وأسفرت عن انسحاب العدو الصهيوني مهزوماً مخلفاً وراءه كماً هائلاً من الدمار والخراب في البيوت، وعدداً كبيراً من الشهداء والجرحى.

لم تكن معركة آذار / مارس 2002 استراتيجية من طرف العدو، وإنما أرادها تكتيكية لاختبار إمكانات الثوار، وليرسم بعد ذلك استراتيجيته للمعركة المقبلة. كنّا نعرف ذلك، كما كنّا متأكدين من عودة العدو إلى معركة أكبر في المخيم، ولهذا استفدنا من معركة آذار / مارس، وبدأنا بإعداد أنفسنا في سباق مع الزمن، كي نكون جاهزين لمواجهة حاسمة. وفعلاً، سمّى العدو الصهيوني العملية التالية "السور الواقي"، وشملت جميع المدن الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة، وكانت معركة مخيم جنين الثانية في نيسان / أبريل 2002 جزءاً من تلك العملية. ولمعرفة تفصيلات هذه المعركة يمكن العودة إلى رسالة ماجستير بعنوان: "معركة مخيم جنين: التشكل والأسطورة (نيسان / أبريل 2002)"، أعدّها أخي ورفيق دربي القائد جمال حويل في جامعة بيرزيت.

غير أنني سأذكر هنا بعض التفصيلات التي تخصني خلال المعركة: في اليوم الأول، فتحت منزلي مرة أُخرى للمقاتلين من أجل حثّ أهل المخيم على فعل مشابه من دون خشية تبعات ذلك، فكان المخيم وأهل المخيم عند الثقة. ولا أبالغ إذا قلت إن الحيوانات كانت تقاتل إلى جانبنا. ومن النوادر التي أذكرها في هذا الشأن، أنه في اليوم الثالث، وبينما كنت مرابطاً في أحد البيوت، رأيت قطة تسير ببطء بين بقعة وأُخرى، فقلت في نفسي حتى القطط لا تعلم ولا تدري ماذا تفعل من شدة الحصار والخوف المسيطر في المكان. وفجأة رأيت القطة مسرعة كالبرق، فعلمت أن هناك مَن يطاردها، لأن القطة لا تهرب بهذه الصورة من أبناء المخيم، وأدركت أن جنود الاحتلال خلفها، وما هي إلّا لحظات، حتى كانوا على مرأى عيني ومرمى بندقيتي.

حينها، قررت الذهاب إلى المنزل الذي كان فيه جثمان أخي الشهيد، والذي كان قريباً بعض الشيء، لكن قرب المسافة لا يعني سهولة الوصول، فالمعركة كانت من بيت إلى بيت، كما أن الاشتباك مع العدو كان يدور أحياناً في أجزاء متنوعة من البيت نفسه. لكني لم آبه بذلك، واقتحمت ذلك المنزل، مسنوداً بمَن أصروا على أن يكونوا إلى جانبي، لتغطيتي من استهداف القناص الذي كان في الموقع. وصلت إلى أخي واحتضنته، وبلّغته تحياتي وسلاماتي إلى أمي وأبي. وأصرّ مَن كانوا معي على مغادرة المكان، إذ من المؤكد أن العدو سيدخل

البيت وهو ما حدث فعلاً، فقد قصف البيت بصواريخ حارقة، الأمر الذي أدى إلى احتراق جثمان أخي [طه الزبيدي].

في آخر يوم من المعركة كانت الحالة سيئة جداً، إذ لم يتبقّ لنا كمقاتلين في المخيم سوى مئات من الأمتار لا يستطيع أحد التحرك إلى خارجها، وكانت الذخيرة قد نفدت، فبدأ الحديث يدور عن وقف القتال وتسليم أنفسنا، وخصوصاً أن بيننا كثيراً من الصغار والنساء وكبار السن. لكن قراري منذ اللحظة الأولى كان عدم الاستسلام، غير أنني لم أصرّح بذلك كي لا أظلم أحداً معي. كنت أعلم جيداً طبيعة الصراع الدائر في نفوس المقاتلين، وكنت ألتمس العذر لمَن يرغب في الهدنة، فالحالة بعد ثلاثة عشر يوماً من القتال أوصلتنا من ناحية، إلى مواجهة دبابات وجرافات، لكنني، من ناحية أُخرى، كنت أمام مسؤولية كبيرة تجاه الأشبال والفتية الصغار المرتبطين بي، ولهذا خرجت من ذلك كله بقرار اتخذته بمفردي من دون أن يتأثر به الصغار.. تركتهم لقرارهم، واختفيت وراء ركام المخيم رافضاً تسليم نفسي. بقيت ثمانية عشر يوماً بين الأنقاض، وتحتها، مستعداً لأي مواجهة محتملة، وبعد هذه الفترة كان الجيش الصهيوني قد انسحب من المخيم والمدينة.

أذكر بعض أحاديث أبطال هذه المعركة، وهي لافتة للنظر، فقد كنا نجلس في مجموعة من المقاتلين قبل يوم من بدء المعركة، حين سأل الشهيد علاء صباغ الشهيد زياد العامر قائلاً: برأيك ماذا سيحدث هذه المرة؟ هل ستكون التجربة مثلما جرى في آذار / مارس؟ فأجاب زياد: "الشهر الثالث كان مجرد استكشاف، جسّ نبض، أمّا هذه المرة فهي المعركة الحقيقية. ستقف الدبابة أمام منزلكم، وأنت يا علاء ستطلق النار عليها من بين فروع الخروبة." وهذه الخروبة لا تبعد سوى ستة أمتار عن باب منزل علاء. فضحك علاء ساخراً ومستغرباً وقال: "هاظ [هذا] بدهم يهدُّو ستمية دار حتى يصلوا لدارنا!"، فمنزل علاء يقع في قلب المخيم، وكي يصلوا إليه، لا بد من هدم هذه البيوت كافة. وللمفارقة فإن ما تنبّأ به زياد، وقاله علاء، هو ما حدث فعلاً. ففي اليوم الأول من المعركة، وصل أحد الشباب إلى منزلنا ليقول لزياد إن جنود الاحتلال نزلوا إلى المخيم من الجبل، فخرج مسرعاً عبر درج البيت ومعه نصف ساندويش مرتديلا كنت أعطيته إياه، تاركاً النصف الآخر قائلاً بروح معطاءة ومنكراً لذاته: "رح تحتاجوه!" ولم يكن يفصل بيتي عن الجبل الذي أسرع إليه زياد سوى الطريق، فكان الاشتباك المباشر الذي خاضه زياد العامر وسقط شهيداً، مؤكداً لنا أن القادة يجب أن يكونوا في المقدمة، حيث النصر، أو الشهادة.

بعد انتهاء المعركة، عدت أفتش في شريط الذاكرة وأحاول ربط الأحداث، فظهرت لي عدة مفارقات أو نوادر. ففي اليوم الخامس عشر على بدء المعركة، تذكرت نصف ساندويش المارتديلا الذي تركه زياد في اليوم الأول من المعركة، فقد احتجنا إليه فعلاً في اليوم الخامس عشر. كنا مجموعة من المقاتلين الذين رفضوا الاستسلام، وكنا نتجمع تحت أنقاض البيوت المهدمة، وكان بيننا مَن مضى عليه ستة أيام جائعاً لم يذق الطعام، ولا كسرة خبز... كما أذكر أن أحد المقاتلين الذي ذهب مع مجموعة لتسليم نفسه، عاد مسرعاً إليّ فسألته: لماذا عدت؟ قال: لأنني تذكرت أن شقيقك الشهيد (طه زبيدي) كان قد أوصاني بك، فعدت لأبقى معك.

انتهت تلك المعركة، وخرجنا من تحت الركام، وكنا سبعة عشر مقاتلاً. وبدأت مرحلة مختلفة، إذ كان علينا كمقاتلين جمع ما تبقّى من عتاد، وإخراج جثامين الشهداء من تحت الأنقاض، فالمسؤولية كبيرة تجاه الأهالي الذين خسروا بيوتهم وأموالهم وأبناءهم، ولا بد من تأمين مساكن لهم، ولتأمين ذلك، استعنّا باللجان التي شُكلت لهذا الأمر. وعلى المستوى العسكري، بدأنا نشكل خلايا لمنع الجيش الصهيوني من اقتحام المخيم من أجل ملاحقة المقاتلين المطاردين الذين لم يستشهدوا أو يؤسروا. فالمطاردون كانوا في خطر دائم، وخصوصاً أنه ما عاد هناك سيطرة على المدن الفلسطينية التي أصبحت مستباحة للعدو، كما أن تقسيمات "أ" و"ب" و"ج" انهارت، وفقدت السلطة جميع وظائفها الأمنية، وصار على عاتقنا ضبط الأمن في المحافظة، فباتت المسؤولية ثقيلة وكبيرة على كاهل المقاتل (المطارد) الذي ترتب عليه القيام بوظائف السلطة كلها، مثل توفير الأمن والمأكل والمشرب والمسكن والملبس للمواطنين، وفي الوقت نفسه تشكيل الخلايا العسكرية وتأمين العتاد والسلاح لإكمال مشوار التحرر الذي عاهدنا شهداءنا على أن نمضي فيه، لأن "على هذه الأرض ما يستحق الحياة"، مثلما قال شاعرنا محمود درويش.

4.4 التنين وملاك الموت

بتاريخ 10 حزيران / يونيو 2002، أي بعد شهرين على المعركة قررت الزواج بناء على اتفاق مع شريكة حياتي التي تعلم أنني مطارد، وأنه يمكن أن أستشهد أو اعتُقل في أي لحظة. وافقتْ على الارتباط بي وهي تعلم أن الوقت الذي سيجمعنا سيكون قليلاً جداً، بل نادراً. وهذا ما حدث فعلاً، ففي أول يوم من الزواج دخلنا بيتنا في الساعة الثالثة عصراً، وعادت إلى منزل أبيها في الساعة الثامنة مساء، لأن قوات الاحتلال كانت قد اقتحمت المدينة في تلك الساعة فاضطررت إلى الخروج من المنزل. هكذا، وعلى مدار أعوام المطاردة كلها، كان لقائي بشريكة حياتي محدوداً... وقد عاشت زوجتي معي لحظات الخوف والرعب مع كل اقتحام

صهيوني، وذلك بحكم الحالة النفسية التي يعيشها المطارد في حياة ملأى بالخوف والقلق المتواصل، والوقوف على حافة الموت طوال الوقت. وهذه العلاقة بين المطارد والموت لا يفهمها سوى مَن عاش التجربة، ففي كل ليلة تجري حوارات بين المطارد وملك الموت حتى تشرق شمس الصباح وتبدأ العصافير بالزقزقة، ويشرع الناس في الخروج من منازلهم، وتنتهي "المفاوضات" لمصلحة المطارد، وأحياناً لمصلحة ملك الموت، كما لو أن هذه العلاقة ناموس من نواميس الكون يتبدل كما يتبدل الليل والنهار.

أذكر في إحدى هذه "المفاوضات" مع ملك الموت، أنني كنت ذات ليلة مع أخي عطا أبو رميلة أمين سر حركة "فتح"، حين دخلت قوات الاحتلال فاضطررنا إلى النزول في قبر أغلقه علينا بشكل محكم أحد الإخوة المؤتمنين. وبينما نحن في القبر، سألت عطا: إذا أتى ملك الموت الآن كيف ستقنعه بأننا أحياء؟ قال مباشرة: "وحّد الله يا زلمة!" قلت: "لا إله الّا الله، لكن، حقاً، كيف ستقنعه؟" لم يكن لديه إجابة، فقلت: "أتدري كيف؟ لقد سمعت أن الميت يُسأل أولاً عن دَيْنِه، وأنا، يا عطا، لا دَيْنَ عليّ، أمّا أنت، فحدّث ولا حرج، كل ديون حركة (فتح) عليك، وملك الموت لديه الوقت الكافي حتى الصباح لاستكمال التحقيق معك!"

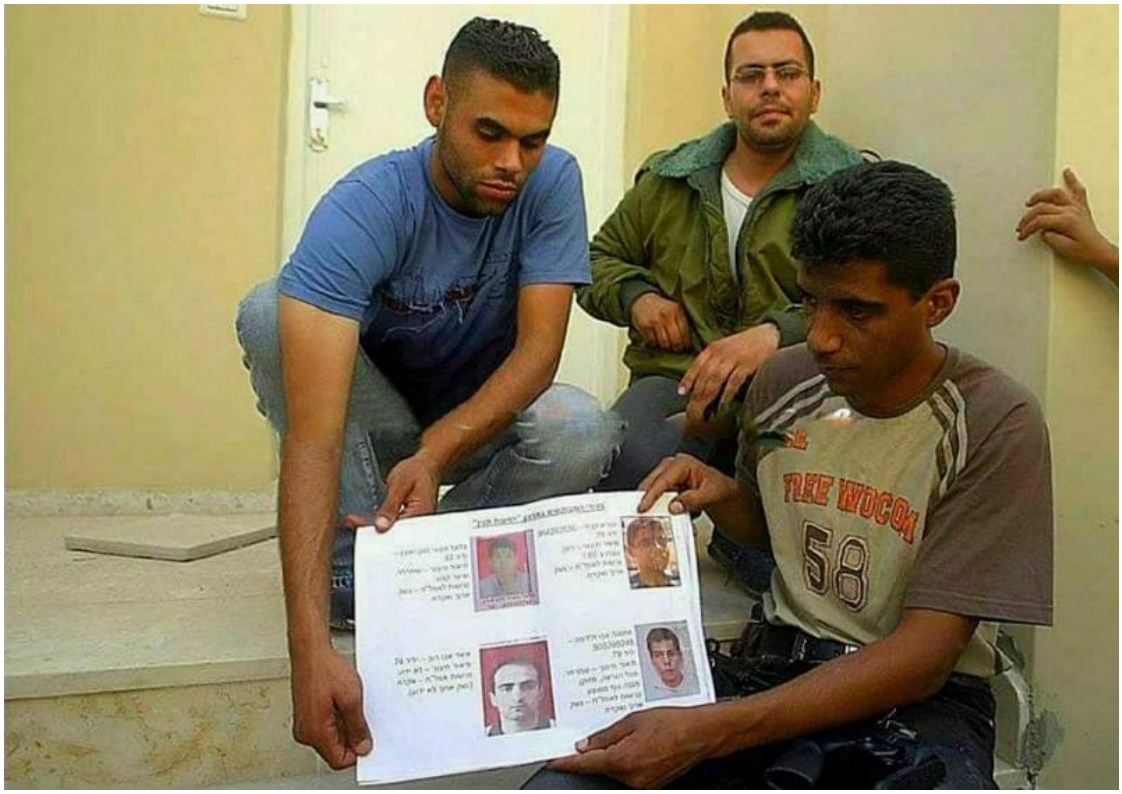

زبيدي (في مقدم الصورة) يعرض لائحة إسرائيلية لثوار مطاردين

بعيداً عن هذه المفارقات، قامت قوات الاحتلال بمحاولات عديدة لاغتيالي أو اعتقالي، وكان أبرزها العملية التي أطلقوا عليها اسم "عملية الجرذ الأسود". فقد كنا نستفيد للحفاظ على أنفسنا وأمننا من الإعلام الصهيوني، إذ كثيراً ما كنا نعرف مَن المطارد المطلوب اغتياله من خلال ما يدور في الإعلام، فقبل "عملية الجرذ الأسود" بفترة قصيرة، كان أحد الإعلاميين قد سألني عن مكان اختبائي، وعمّا إذا كنت أملك طاقية الإخفاء، فأجبت: لا أحد يعلم بمكاني سوى جرذ أسود كان يسامرني في الليل تحت الأرض. استمرت عملية التفتيش ثمانية أيام، وبعد انسحاب الصهيونيين، وفي مقابلة سأل خلالها المذيعُ المحللَ العسكري الصهيوني عن سبب العملية وسبب تسميتها، فردّ عليه مباشرة: إذا وصلنا إلى الجرذ الأسود فذلك يعني وصولنا إلى (ز. ز.). وقد برر هذا المحلل العسكري فشل عمليتهم المرتكزة على التكنولوجيا بقوله: إن هذا الولد (ز. ز.) له حظ ممتاز، فهو خلال ثمانية أيام لم يستخدم هاتفه المحمول، ولا حتى لكتابة رسالة!

وفي حادثة أُخرى، أعلن الإسرائيليون، من خلال تقرير إخباري على القناة العاشرة، أن الشارع الإسرائيلي يتداول "أوراق الشدَّة" المرسوم عليها صور ورموز المقاومة كالشهداء ياسر عرفات وأحمد ياسين وعلى صورهم إشارة (x)، أي أنه تم اغتيالهم، والإخوة (الراحل) رمضان شلّح وغيره من رموز المقاومة من دون إشارة (x)، أي أنهم على طريق الاغتيال. ولم يذكر التقرير مصدر هذه الأوراق، ولا كيف انتشرت في الشارع، كأنها سقطت من السماء إلى التاجر الإسرائيلي. وفيما يتعلق بي في أوراق الشدة هذه، فإن صورتي كانت على ورقة "2 دينار". وعندما سمعت هذا التقرير الإخباري، أيقنت بأن ملف اغتيالي بات على الطاولة، وفعلاً، لم تمضِ ثلاثة أيام حتى دخلت قوات كبيرة من جيش الاحتلال مسبوقة بقوات خاصة من المستعربين، فحاصرت المنطقة التي كنت فيها داخل المخيم، لكني خرجت من هذا الحصار بأعجوبة. وقد أدى القدر دوره في ذلك، مع أنني، بحسب قناعاتي، لا أترك مكاناً للقدر في حالة المطاردة، لأن حسابات القدر هذه يجب أن تكون بعد استنفاد ما يتعين عليك فعله كله. فعلى سبيل المثال، عندما دخلوا لاغتيالي في العملية السابقة كان قراري الأول سريعاً جداً، وهو الخروج من المنزل فوراً، لأن خطة العدو كانت ترتكز على أن تقوم المجموعة الأولى وهم المستعربون، بتنفيذ مهمة حصار المنزل، ولذلك يترتب على المطارد إخلاء المكان المقصود حصاره قبل وصول التعزيزات العسكرية التي ستضعك أمام خيارات قليلة جداً، بل ربما ستضعك أمام خيار واحد هو الاشتباك الذي له نتيجة واحدة وهي الاستشهاد المؤكد أو تسليم نفسك.

خلال الفترة اللاحقة لعملية "أوراق الشَّدَة"، دخلت قوات عسكرية كبيرة إلى محافظة جنين، وتمركزت في أحيائها كلها، لكنها لم تستهدف مطارداً واحداً من المعروفين، وإنما شنّت عملية اعتقال واسعة تجاوزت خمسة وأربعين شخصاً تبيّن لنا أنهم من المناضلين العاملين في مجال الدعم اللوجستي للمطاردين ولي

شخصياً. وهنا عرفت أننا، نحن المطاردين، أخطأنا خطأ كبيراً، ونتحمل مسؤولية كبيرة في اعتقالهم، لأن علاقتنا بهم كانت من خلال التواصل الإلكتروني حين نضطر إلى ذلك، وهو ما مكّن العدو من رصد المكالمات والتعرف إلى هؤلاء المناضلين الذين دانتهم محاكم الاحتلال بتهمة واحدة هي مساعدة المطاردين. وقد أطلقوا على هذه العملية اسم "لمّ القمامة"، الأمر الذي استفز أحد الإخوة الذي قال لي: أتدري أنني مستعد لأكون على قوائم التصفية، ولا أقبل أن أكون في قوائم "لمّ القمامة"!

بعد هذه العملية بعدة أشهر، طاردني قناص محاولاً قتلي، فأصابت الرصاصة شخصاً كان إلى جانبي، واستقرت الرصاصة الثانية بين قدمَي. وبعدها بخمسة عشر يوماً، أصابني قناص في كتفي في محاولة ثانية، وبعد شهر ونصف شهر أصابني قناص في ظهري. كنت أشعر بأن الوقت يمضي مسرعاً، وأن اللقاء بيني وبين ملك الموت صار قريباً، ففي الأمثال عندنا يقولون: "الثالثة تالفة" و"الرابعة قابعة"، ويبدو أن هذا القناص يريد أن "يتلفني" أو"يقبعني"، فلجأت إلى شخص حكيم وذي عقل راجح، وشرحت له حجم الاستهداف ومحاولة هذا القناص اغتيالي، وطلبت نصيحته، فقال: القناص لا يخاف إلّا من قناص مثله، فعليك أن توصل إليه رسالة بصفتك قناصاً وليس مطارداً. سألته: وكيف أوصل هذه الرسالة؟ فقال: عليك أن تجري مقابلة مع الصحافة الإسرائيلية. وفعلاً، انتظرت أول فرصة لمقابلة صحافية، وأخبرت المراسل الإسرائيلي أنني أنتظر القناص على أحر من الجمر، وكنت قد وضعت علبة كولا على مسافة أمام الكاميرا، وصوبت بندقيتي في اتجاهها وأصبتها بعيار ناري مباشرة، وقلت للمراسل الصحافي سيلقى قلب القناص رصاصة كالتي أصابت هذه العلبة. بعد هذا الكلام اختفى هذا القناص وتوقف عن لعبة الموت معي.

وفي مساء أحد الأيام، وكنت مختفياً عن الأنظار أكثر من ثلاثة أشهر، وبينما كنت أتابع نشرة الأخبار على القناة الإسرائيلية الأولى، إذا بتقرير يتحدث عن عمليات اغتيالي الفاشلة خلال الأعوام السابقة، وفيه يعرض المحلل العسكري سيناريواً مبرمجاً تكنولوجياً كأنه فيلم قصير، هو عبارة عن مجموعة من المكعبات مبنية على شكل هرم، وكان رأس الهرم مكعباً يحمل صورتي. صُوّبت بندقية على الجهة اليمنى من الهرم، وأُطلقت ثلاث رصاصات، فتحرك الهرم ثلاث لفات حاملاً صورتي على رأسه من دون أن تسقط الصورة. ثم تكرر إطلاق الرصاص على أطراف الهرم ليدور عدة دورات، مرة أُخرى، من دون أن يسقط المكعب الذي يحمل صورتي. بعد ذلك، صُوّبت البندقية على المكعب الثاني أسفل صورتي مباشرة، وأُطلقت رصاصة واحدة، فسقط المكعب الذي يحمل صورتي إلى أسفل الهرم... أدركت حينها أنهم يحضرون لاغتيال نائبي (ش. م.). خرجت من مخبئي مسرعاً إليه، وأخبرته أن قوات الاحتلال سيقومون باغتياله، وأن عليه أن يتوخى الحذر

ويختفي هذه الفترة، لكنه للأسف لم يأخذ الأمر على محمل الجد، فلم يمر سوى يوم ونصف يوم حتى اغتالوه مع شخصين كانا برفقته.

وفي بيت العزاء كان لا بد من أداء الواجب. ولأنني أعلم أن العدو لا يتورع عن استهداف المكان العام المكتظ بالناس، كنت أقوم دوماً بواجب العزاء على وجه السرعة وأغادر، إلّا إن هذه المرة كان لا بد من بقائي فترة أطول إذ علمت أن الأجهزة الأمنية ستأتي لتقدم واجب العزاء. ولأنه كان هناك إشكالات بين الأجهزة الأمنية والمخيم، فقد آثرت الانتظار حتى يأتوا ويخرجوا بأمان. وفي أثناء ذلك، اقتحمت المكان فجأة سيارة القوات الخاصة الصهيونية، وفتحت النار على الجميع مستهدفة مكان وجودي بوابل غزير من الرصاص، فأصيب الشخص الذي كان على يميني مباشرة. وعلى الفور أخذت الأرض، تاركاً عينيّ مفتوحتين على الجندي المكلف بالزاوية التي كنت فيها. نظرت إلى يميني لأجد مخرجاً، فرأيت الشخص الذي بقربي مصاباً بثلاث طلقات، فنظرت مجدداً إلى الجندي الذي كان يطلق النار على الواقفين في زاويتي، وأدركت حينها أنه لا مخرج لي سوى النهوض في لحظة استبدال الجندي مخزن الذخيرة. وفي هذه الأثناء، صار الجندي على بعد أقل من نصف متر، حينها، أدركت أنني إذا نهضت للانسحاب فلن أنجح، لأنني كنت بحاجة إلى خمس ثوان من لحظة استبدال مخزن الذخيرة، لكن الآن وقد اقترب مني أكثر، وبات على بعد نصف متر، فقد صرت بحاجة إلى أكثر من خمس ثوانٍ، فكيف أحصل على هذا الوقت؟ ومن دون تردد، قررت أن أضربه على صدره لأكسب الوقت اللازم وأنسحب. وفعلاً فاجأته بنهوضي ثم ضربته بكلتا يدَيّ على صدره، وانسحبت من المنطقة. لقد أسفرت هذه الجريمة الصهيونية عن استشهاد أربعة أشخاص وإصابة 37 آخرين.

ومع أن بعض علماء النفس يقول إن الخروج من المربع ربما يكون حلاً ملائماً، إلّا إن ما حدث معي، ومن خلال تجربتي، يفيد بغير ذلك. فقد خرجت من المربع عدة مرات، الأمر الذي عرّضني بعد أعوام طويلة لمحاولة اغتيال في واد برقين كادت تكون محققة آنذاك، لأن الإحباط والتراخي والاستهتار بالوضع الأمني كانت قد أصابتني، وبتّ كأنني مللت من هذه المطاردة ومحاولات الاغتيال المتكررة، فقلت في نفسي مثلما قال جسّاس ذات يوم: "افعلها وخلصنا!" بالعودة إلى تلك العملية، فذات ليلة كان الجو شديد البرودة والمطر، وأنا داخل المخيم، فخرجت لأقف تحت مظلة أحد أبواب البيوت وكان قد سبقني إليها قط أسود. وقفت إلى جانبه ولم يتزحزح من مكانه، كأنه يقول لي أنا قبلك هنا، فإذا كان لأحدنا أن ينصرف فهو أنت. لا أدري كيف أخذتني قدماي إلى واد برقين، وهو أحد الأحياء القريبة من المخيم، حيث استخدمت جهازي الخلوي لاستقبال مكالمة أخبرني خلالها أحد الإخوة عن المكان الذي يوجد فيه إخوتي المقاتلون، وكان استخدامي للهاتف خطأ قاتلاً. ربما كانت شدة البرد والضغوط النفسية هي سبب وقوعي في هذا الخطأ، إذ

ومن دون تفكير، وبلا احتياطات أمنية، ذهبت إلى المكان، وكانت الساعة تقارب الثانية عشرة عند منتصف الليل حين وصلت إلى البيت، فخلعت معطفي وحذائي، وأغلقت الهاتف واستلقيت على الأريكة جثة هامدة.

وفي تمام الساعة الثانية صباحاً، رن هاتف أحد الإخوة النائمين، فقمت بالرد على المكالمة فإذا بالمتحدث يقول إن مجموعة من الآليات العسكرية متجهة إلى واد برقين. تلقيت الخبر وكان الأدرينالين قد صعد إلى الدماغ مباشرة، وبدأت خلايا الدماغ ترسم سيناريوهات متعددة بعد أن أدركت أن البيت محاصر، لأن الآليات القادمة هي للمساندة وليست للاقتحام. ألقيت نظرة من طرف الشباك المحاذي لبوابة المنزل الرئيسية، فإذا بثلاثة جنود يقفون في ساحة البيت، وبتفكير سريع قررت الخروج من باب المنزل مباشرة على الجنود الثلاثة، متسلحاً بعنصرَي المفاجأة والإرباك لأن خروجي من الباب الرئيسي لم يكن متوقعاً قط، ذلك بأن العلوم العسكرية تفيد بأن الحصار يأخذ شكل حرف U للحفاظ على حياة الجنود، فالباب الرئيسي هو فتحة U الوحيدة، وهم لن يكونوا قبالة الفتحة مباشرة، بل على أطرافها، ولذلك، فإن جهوزيتهم تكون ضعيفة. فكرت في ذلك خلال ثوانٍ معدودات، ثم نفّذت قراري وفتحت البوابة وقفزت على الجنود الثلاثة محدثاً لهم إرباكاً شديداً. تخلل الاشتباك بعض اللكمات والركلات مصحوباً بالصراخ والشتائم، وفي الوقت نفسه، التفتّ إلى الزاوية التي أنوي الانسحاب منها، لكن للأسف كانت الخيار الخطأ نسبياً، لأنني عندما ركضت في اتجاه تلك الزاوية، تفاجأت بقناص خلف شبابيك البيت، لأنهم كانوا يتوقعون خروجي من الشباك. وبينما كنت أحاول القفز عن سور المنزل، أطلق ذاك القناص عليّ رصاصتين أصابتا ظهري، فرددت على النار بالمثل، محاولاً إرباكه، لكنه لم يستسلم، ورفع رأسه وأطلق رصاصتين أُخريين فأصابني بيدي اليسرى. صرخت عليه موهماً إياه بأنني في حالة هجوم، لأستغل الفرصة وأقفز عن السور، وفعلاً، قفزت بسرعة وركضت في اتجاه المخيم، والمسافة بين المخيم وواد برقين تقارب الألف متر. في منتصف الطريق، لم أعد قادراً على الركض بسبب النزيف في أكثر من مكان في جسمي، وبينما كنت أحاول اجتياز سور مقبرة الشهداء في المخيم، سقطت مغمى عليّ.

وقرابة الساعة الثامنة صباحاً، وبعد مرور أكثر من ست ساعات، استيقظت على كثافة المطر المتساقط على وجهي، فاعتقدت في البداية أنه ماء يسكبه أحد الأشخاص ليوقظني من الغيبوبة. حاولت أن أستعيد قوتي للنهوض، فقد كنت مدركاً أنني مصاب في ظهري ويدي، وصرت واعياً لتفصيلات ما حدث كله في الساعات الماضية، إلّا إني في الوقت ذاته كنت أشعر بالدهشة، فدائماً وفي كل محاولة اغتيال، كنت أرى الموت وأشعر به، وأحياناً تجري المفاوضات بيني وبين ملك الموت، لكن في محاولة الاغتيال هذه، وعلى الرغم من أنها الأشد والأقوى والأقسى والأصعب، وعلى الرغم من وجودي الآن في المقبرة، فإن الموت لم

يخطر لي ببال، ولم أرَ ملك الموت في هذه المقبرة قط. نظرت إلى البيت الملاصق للمقبرة، وإذا بعجوز تنشر غسيلها على شرفة البيت، فانتظرت حتى دخلت، وأخذت وشاحاً عن المنشر ضمدت به جروحي.

نظرت إلى المخيم، ووجدت أن المسافة التي تفصلني عنه تقارب 300 متر، فصعدت على السور، وإذا بآليات عسكرية رابضة خلفه مباشرة. اتكأت على هذا السور الفاصل بيني وبين هذه الآليات، وقلت في نفسي: هذا المكان قرب الدبابة هو الأكثر أمناً. أصابتني نوبة من الضحك كلما كان الاشتباك مع مقاتلي المخيم يشتد وأنا خلف السور، إذ كنت أسمع حديثهم الذي كان بلغتهم العسكرية، وقد سمعتهم يتحدثون في اللاسلكي عن انتهاء العملية، ثم سمعتهم وهم يَعدّون مقاتليهم، وعندما خلصوا إلى كلمة "مسبار نخون"، أي "العدد صحيح"، أدركت أنهم سينسحبون بعد عدة دقائق.

وفعلاً، انسحبت الآليات العسكرية بعد أربع أو خمس دقائق، ثم تفاجأت بأحد الجيران في المنطقة يركض في اتجاهي حاملاً بيده كيساً أسود مليئاً بالإسعافات الأولية وهو يقول لي: كنت أراقبك الليل كله، هات أضمد جراحك. سألته: هل معك سجائر؟ ودَعْك من جروحي الآن. قال: معي دخان عربي. قلت، ضاحكاً: هات يا زلمة، وهل هناك ما هو أحلى من العرب، فما بالك بدخانهم؟ فكانت ألذ سيجارة استمتعت بها في حياتي!

بعد عدة محاولات فاشلة قام بها العدو الصهيوني، كنت أعلم أن العدو لا يَكِنّ ولا يلين، وسيظل يبحث باستمرار عن أساليب وطرق جديدة للوصول إلى المطارد. وكانت عملية "دموع التنين" مفاجئة وبعيدة كلياً عن الروتين المعروف لي، إذ إنها كانت متعددة الأهداف، أي جمعت أكثر من مطارد في آن واحد، واستهدفتني العملية كما استهدفت ثلاثة مطاردين آخرين في المخيم. كانت عملية مختلفة بجميع المعايير، وكانت ساعة الصفر مختلفة، فتوقيت الهجوم كان مع ساعات المغرب، حين يكون المخيم مكتظاً بأهله. فانقسمت القوة الصهيونية المقتحمة إلى خمس مجموعات، أربع مجموعات تستهدف المطاردين واحداً واحداً، ومجموعة من القناصين انتشرت على العديد من المحاور المطلة على الشوارع الرئيسية والفرعية، من خلال اعتلائها المنازل المرتفعة والمطلة، لأن الهدف، أي المطارد، متحرك. حينها أدركت أن عليّ أن أهدّىء من التوتر الناتج من اعتماد العدو في هذه العملية على عنصر المفاجأة، كأنه يقول لنا اخرجوا إلى الشوارع، وذلك من خلال استخدامهم مكبرات الصوت في جميع المناطق أو المحاور: "اطلع من البيت، البيت محاصر!" استطعت تحديد المحاور الأربعة المحاصرة، وكان القرار هو الخروج من المربع الذي كنت

موجوداً فيه وعدم الدخول في مربع آخر محاصر، وفعلاً، وبطريقة لا أستطيع شرحها، خرجت من المربع وانتهت العملية. وبعد انسحابهم وجدنا الملف السري للعملية ملقى على الأرض في أحد أزقة المخيم.

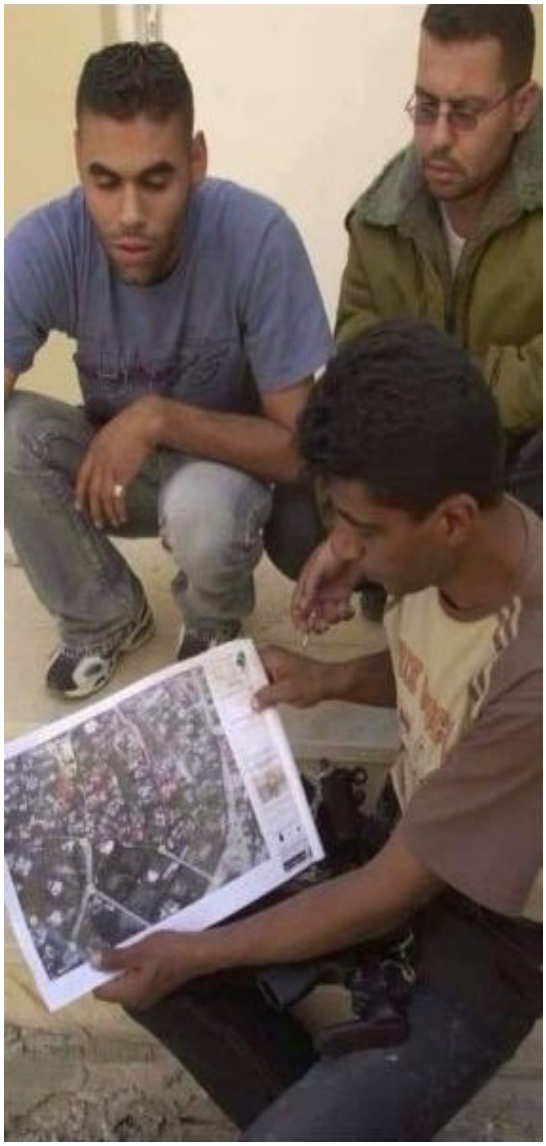

زبيدي يعرض خريطة عسكرية إسرائيلية للمخيم

4.5 التنين والناس

ذكرت سابقاً المطاردة الفلسطينية وحاضناتها، وأن طبيعة المطاردة بصورة عامة، وظروف المكان، تشكل حالة المطارد، وهي تملك جوانبها السلبية والإيجابية، وذلك من خلال الأمن والخطر، والراحة والمشقة، والحركة والسكون، وطبيعة المجتمع، والإمكانات المتاحة، ووسائل الحياة اليومية، والتعقيدات التي

يواجهها المطارد، والإخفاقات في أحيان عدة، وعواقبها. وللبدء من حيث انتهيت، فإن الإخفاقات ليست دائماً نتيجة الخوف وقلة الخبرة في المجال الأمني بصورة عامة، بل قد يعود السبب إلى الشجاعة المفرطة التي تصبح نقمة بعد أن كانت نعمة، وهي صفة يتحلى بها المطارد، لأن من سمات المطارد العناد والإصرار والمغامرة والتمرد التي تقوده إلى الوقوع في الخطأ، وتكون سبباً في نهاية لا تُحمد عقباها: الاستشهاد أو الأسر. ولنجمل القول بأن الخطأ الأول في المطاردة هو الخطأ الأخير. أمّا الحاضنات الشعبية للمطارد الفلسطيني، فتعتمد بشكل مركزي على ثلاث مناطق بحسب طبيعة المنطقة: المدينة، والقرية، والمخيم.

لقد كانت المدينة، خلال أعوام الانتفاضة الأولى في سنة 1987، خطرة جداً، لأن العدو الصهيوني كان له مراكز أمنية وتجمعات في داخلها، كما أن المطارد لا يستطيع التنقل والحركة والظهور والصمود في داخلها لوقت طويل، فالدوريات تجوب شوارعها على مدار الساعة، فضلاً عن نقاط التمركز الفرعية الثابتة، وسهولة وصول التعزيزات، الأمر الذي يصعّب على المطارد الوجود داخل المدينة. أمّا في انتفاضة الأقصى في سنة 2000، فكان وضع المدينة مختلفاً، إذ لم يكن يوجد مراكز للعدو الصهيوني، وإنما توجد قوات الأمن الفلسطيني التي كان لها، في حينه، مساهمة كبيرة في إيجاد حاضنة آمنة نسبياً. وهناك أيضاً التعداد السكاني وحركة التنقل والاختفاء، ووجود وسائل الراحة، من حيث العلاج السريع في حال وقوع إصابات، وجميع ما يحتاج إليه المطارد على المستوى الشخصي، أو ما يحتاج إليه من أدوات تخدمه في العمل العسكري، هذا إلى جانب النسيج الاجتماعي داخل المدينة المتباعدة والبعيدة عن القبلية، وهي أشياء تساهم في مرونة الحركة. ففي المدينة يستطيع المطارد استخدام التكنولوجيا، بشكل محدود، أكثر من أي مكان آخر، لأن مساحة المدينة كبيرة تسمح له بإجراء مكالمات والانتقال من منطقة إلى أُخرى بعد كل عملية اتصال، علاوة على قلة مستوى الفضول لدى أهل المدينة إذا ما قورن بفضول أهل القرى.

أمّا القرية التي تُعتبر بطبيعتها السكانية والجغرافية، وبدلالتها، حاضنة شعبية إيجابيه بعض الشيء، فيواجه فيها المطارد صعوبة كبيرة، وذلك بسبب الطبيعة الجغرافية التي تشكل فيها استقلالية البيوت الريفية المتباعدة، صعوبة أمام حركة المطاردين، مع أن التضاريس الجبلية والزراعية تشكل ملاذاً للمطارد، لكنها ليست آمنة لأن استراتيجيا العدو الصهيوني عملت على اصطياد المطاردين بين القرى، ولذلك تصبح الحركة شبه مستحيلة للمطارد ما دام لا يمتلك ما يحجبه كي لا يكون هدفاً سهلاً للعدو.

وفي القرية نظام اجتماعي يُحفّز الفضول لدى الأهالي والسكان الذين تربطهم علاقات اجتماعية عائلية تأخذ الطابع العشائري، إذ في مجمل القرى لا يتجاوز عدد الحمائل 3 - 10، وهم بطبيعتهم الريفية مقسّمون

جغرافياً نسبة إلى علاقات القربى عائلياً، ويعرف بعضهم البعض، ويتملكهم الفضول عندما يدخل غريب إلى قريتهم أو يخرج منها، الأمر الذي يصعّب على المطارد ضبط عملية الاختفاء داخل القرية، أو الحركة من دون معرفة أهل القرية. لذلك، تركزت عملية المطاردة في القرية في المناطق الجبلية، علماً بأن الحياة في الجبل صعبة وشاقة جداً، بسبب عدم توفر أدنى حاجات المطارد، وأهمها العلاج في حالة المرض أو الإصابة. وهناك خطورة متلازمة وهي عملية التواصل، إذ إن المطارد لا يستطيع استخدام التكنولوجيا، وإنما يعتمد على العنصر البشري في التواصل المباشر. ومثلما ذكرت سابقاً، فإن البنية الاجتماعية للقرى تجعل من السهل على العدو الصهيوني تحديد الدوائر الأولى للمطارد والوصول إليه من خلال المتابعة عبر العملاء، فضلاً عن أنه يتعين على المطارد في الريف أن يكون ملمّاً بطبيعة القبيلة والجبل والوادي.

أمّا المخيم، فإن ظروفه تشكّل بعض الإيجابيات بالنسبة إلى المطارد، وهو أمر ظهر بصورة خاصة في انتفاضة سنة 2000. فطبيعة المخيم الديموغرافية تشكل حاضنة حامية للمطارد، لأن سكان المخيم هم من عدة عائلات، وتتشكل لديهم حالة من الوحدة في حال حدوث أي خطر جرّاء ما مروا به من معاناة في رحلة العذاب واللجوء منذ سنة 1948. وللإنسان داخل المخيم خاصية أُخرى، فهو ليس لديه ما يخسره، لأن أي خسارة لا تعني له شيئاً مقارنة بما فقده في سنة 1948. والمطارد يشعر بالأمان، كذلك، بسبب الطبيعة العمرانية، وكثرة الأزقة والبيوت المتلاصقة التي تساعد في التنقل السريع عبر أسطح المنازل، الأمر الذي يسهّل عملية الكر والفر للمطارد. وحتى على المستوى التكنولوجي، فإن العدو الصهيوني يواجه صعوبة في استخدام طائرات من دون طيار (أي طائرات الاستطلاع "الدرونز")، ذلك بأن المنازل المتلاصقة تحجب الرؤية التي يكون مداها محدوداً، وهذا، بطبيعة الحال، يشكل خطراً كبيراً على القوة الصهيونية الموجودة داخل المخيم، لأن من المعروف أن عمليات الاغتيال والانسحاب يجب أن تكون بتنسيق بين السماء والأرض لديهم... ولدينا كذلك.

وهكذا، فإن المطاردة، عبر العصور، جاءت لترسم ملامح وجه الظالم في ملاحقة المظلوم، ولتكون دليلاً بأن العدل المطلق مستحيل، والواقع الذي عاشه الشعب الفلسطيني، منذ بدايات القرن العشرين وحتى اليوم، هو خير شاهد على أن المطارد مثل وجه الحق والعدل، فالمطارد هو الشبح الذي يسير وفيه روح التحدي والصمود أمام الجلاد، وهو الفريسة التي يحاول الصياد اقتناصها، فينجح أحياناً ويفشل أحياناً أخرى، وأحيانا أخرى، تبعاً ليقظة الفريسة وحسن اختفائها. فيقظة المطارد وحسه الأمني العالي، وتفعيل حواسه كافة، تجعله في مأمن من الاغتيال أو الاعتقال. ذلك أن الاحتلال يستخدم نفس المنطق لكشف مكان المُطارد، في كل زمان ومكان، فهو في انتظار ارتكاب المطارد خطأ ما، من شأنه أن يُفصِح عن مكانه، أو تمشيط منطقة

لا يتواجد فيها المطارد، ليقوم بارتكاب خطأ ما، كأن يخرج من "وكره"، أو يتصل بأهله لطمأنتهم... ستبقى قصص المطاردين الفلسطينيين أساطير تروى للأجيال الحالية والملاحقة، وسيبقى المطاردون يسطرون ملاحم البطولة والفداء دفاعا عن ثرى فلسطين الحبيبة إلى أن تعود الأرض إلى أهلها

جامعة بيرزيت
BIRZEIT UNIVERSITY

كلية الآداب-كلية الدراسات العليا

برنامج ماجستير الدراسات العربية المعاصرة

الصياد والتنين:

المطاردة في التجربة الفلسطينية من 1968-2018

ملحق رقم (1): أسئلة عامة حول التجربة النضالية والاعتقالية والتحررية

أولاً: مرحلة ما قبل الاعتقال

1. ما هو السياق السياسي (التاريخي) للنشاط النضالي الذي قام به الأسير (الحدث الأبرز في التحفيز للعمل الوطني، الانتماء السياسي، الشخصية الملهمة، البيئة الاجتماعية- الاقتصادية-السياسية، المستوى التعليمي، مكان السكن-مدينة، قرية، مخيم، العمر، تاريخ الانتماء للحركة الوطنية الفلسطينية)؟
2. ما هي الظروف التي عاشتها العائلة خلال فترة العمل الوطني قبل أن يتم اعتقال المناضل، وما موقع المناضل في تلك الظروف؟
3. ما هي التحديات الأسرية والاجتماعية (قواعد السلامة الأمنية، الحذر، التعامل مع أفراد العائلة وخاصة الأطفال) التي كانت في سياق المجهول أو المعلوم بالنسبة لك حول العمل الوطني الذي يقوم به المناضل قبل الاعتقال؟
4. كيف كان دور الأسرة كحاضنة أولى للعمل النضالي في تشجيع أو تثبيط المناضل؟
5. ما هو أثر ذلك الواقع وتلك التحديات على طبيعة العلاقة الأسرية بين الأسرة والمناضل في تلك الفترة؟
6. هل شكَّل العمل النضالي الذي انخرط فيه المناضل ما بين السري والعلني، والفردي والجماعي، خطراً على الآخرين؟

7. ما هي الإرهاصات – المؤشرات التي آذنت بقرب اعتقال المناضل (اعتقال أحد أفراد المجموعة، إعلان العدو عن كشف بعض تفاصيل عملية ما... وهكذا)؟
8. هل تعرَّضت العائلة لتهديدات من قبل سلطات الاحتلال قبل عملية الاعتقال (اعتداءات، اعتقال، هدم منزل، منع من السفر) بدعوى العلاقة مع الأسير على المستوى الاجتماعي أو على مستوى العمل الوطني؟
9. هل تم تهديد العائلة من قبل سلطات الاحتلال وطلب (التعاون) مع الاحتلال لتزويده بمعلومات عن المناضل؟
10. هل تم تنفيذ التهديد سواءً بترويع العائلة، تحطيم المنزل، إخافة الأطفال، هدم المنزل أو أجزاء منه، اقتياد أحد أفراد الأسرة خارج المنزل، منع أفراد الأسرة من السفر؟
11. هل طرد أحد أفراد الأسرة من العمل على خلفية النشاط النضالي الوطني للمناضل؟
12. هل طالت عقوبات الاحتلال الحي أو القرية أو المخيم أو المدينة برمتها؟
13. ما هي المدة التي أمضاها المناضل كمطارد قبل أن يتم اعتقاله من قبل الاحتلال؟ ما هو واقع فترة المطاردة: المكان، المخابئ، الصعوبات، أحداث وذكريات مميزة...)؟
14. ماذا كان دور العملاء في الكشف عن أو تسليم المناضل؟

ثانياً: مرحلة الاعتقال

1. كيف تمّت عملية الاعتقال (وصف تفصيلي لعملية الاعتقال من البيت، أثناء عملية المطاردة، عن الجسر أو المطار أو حاجز عسكري، أو أثناء العملية النضالية نفسها، أو بعد "اتفاق أمني" تم خرقه)؟
2. هل تمت عملية الاعتقال من أول مرة، أم كانت هناك عدة محاولات؟ وما الذي اختلف من مرة إلى التي بعدها؟
3. ما هو الأثر النفسي والاجتماعي على العائلة في أعقاب الاعتقال مباشرة؟
4. هل تم اعتقال آخرين في سياق عملية اعتقال المناضل؟
5. كيف تفاعل المجتمع المحلي (المباشر والفلسطيني عموماً) مع اعتقال المناضل؟
6. ما هي الطرق والأساليب التي تم من خلالها التعامل مع المناضل قبل وصوله إلى مركز التحقيق (التوقيف، الاعتقال)؟
7. هل تم إبلاغ عائلة المعتقل رسمياً باعتقاله من قبل: سلطات الاحتلال، الصليب الأحمر،

المؤسسات الفلسطينية، المحامي، أهالي أسرى آخرين كانوا في الأسر والتقوا بالمناضل بعد اعتقاله، الإعلام؟

8. ما هي الفترة التي عاشتها العائلة قبل معرفة اعتقال المناضل رسمياً ومكان اعتقاله ومرحلة التوقيف أو التحقيق ومدتها وطبيعة (التهم) الموجهة للمناضل؟
9. بحسب معرفتك، هل كان الاعتقال نتيجة خطأ أو سلوك غير مدروس، أم نتيجة وشاية أحد العملاء؟
10. كيف أثر ذلك على ماهية التحقيق؟

ثالثاً: مرحلة التوقيف والتحقيق

1. كيف كان وقع الإبلاغ الرسمي بتوقيف المناضل على العائلة نفسياً واجتماعياً؟
2. في حالة وجود أطفال كيف كان الوقع النفسي لأسر المناضل عليهم؟ (هل يوجد قصص معينة ترغبون في مشاركتها في هذا السياق؟)
3. في حالة وجود أبوين كيف كان وقع الأسر عليهما، وعلى بقية العائلة من إخوة وأخوات؟
4. ما هي طبيعة الوثائق الرسمية التي حصلت عليها العائلة للإبلاغ عن أسر المناضل؟
5. هل تم التواصل مع العائلة من قبل أية جهة وطنية أو اجتماعية للتضامن مع العائلة؟ (وهل يوجد وثائق بذلك)؟
6. هل تعرضت العائلة لتهديدات من قبل سلطات الاحتلال أثناء عملية الاعتقال أو بعدها (في فترة التوقيف والتحقيق)؟
7. هل تم اعتقال أفراد آخرين من العائلة من قبل سلطات الاحتلال في أعقاب أسر المناضل بدعوى العلاقة مع الأسير على المستوى الاجتماعي أو على مستوى العمل الوطني؟
8. ما هي أساليب التحقيق التي تم استخدامها خلال هذه الفترة؟
9. هل تم التواصل مع الخارج خلال هذه الفترة من خلال المحامي أو الصليب الأحمر أو زملاء تحرروا من الزنازين؟
10. هل هناك قصص معينة في الصمود؟ التحدي؟ الانهيار؟ مواجهة رفاق درب اعترفوا؟

رابعاً: مرحلة ما بعد التحقيق -المداولات والحكم

1. كيف كان واقع اللقاء بالأسرى الآخرين خارج زنازين التحقيق للمرة الأولى؟
2. كيف كانت معنويات الأسير ووضعه الصحي في أول جلسات محاكمته من قبل الاحتلال؟
3. كيف كان أثر اللقاء الأول بالأسير على العائلة نفسياً واجتماعياً؟
4. من هو المحامي الذي تم تكليفه؟ وما هي الجهة التي أرسلت المحامي (العائلة، نادي الأسير أو وزارة الأسرى أو نادي الأسير أو فصيل معين)؟
5. كيف كان دور المحامي في المحاكم العسكرية (هل لجأ الى الصفقات أم المرافعات)؟
6. كيف كان وقع الحكم النهائي على المناضل والعائلة من الناحية النفسية؟

خامساً: مرحلة الأسر

1. متى كانت أول زيارة للأسير من قبل العائلة؟
2. هل مُنع أحد أقرباء الأسير من زيارته تحت حجج أمنية؟
3. هل تم استهداف الأسرة والضغط عليها كأسلوب للضغط على الأسير (تعطيل معاملات في الدوائر الرسمية، منع من السفر، اعتقال بعض أفراد الأسرة وغيرها من الأساليب الرخيصة)؟
4. هل كان المعتقل الذي احتُجز به الأسير بعيداً عن مكان سكنه؟
5. هل تعرَّض الأسير لوعكة صحية أثناء وجوده في المعتقل وكيف تعاملت معه إدارة مصلحة السجون؟
6. هل كان هناك تحديد للأموال المرسلة للأسير من قبل عائلته؟
7. هل منع الأسير من التعليم (توجيهي أو جامعة)؟
8. ما هي تفاصيل الحياة الاجتماعية، الثقافية، السياسية، الاقتصادية داخل السجن؟
9. هل شارك الأسير في إضراب عن الطعام أثناء تواجده في المعتقل، وكيف كان وقع ذلك نفسياً واجتماعياً على العائلة؟
10. هل كان لدى الأسير وسائل اتصال مع العالم الخارجي (تلفون، محامي، وسائل إعلام)؟
11. هل كان هناك انعكاس لمشاكل الأسرى داخل السجون على العائلات (إن وجدت) (سؤال اختياري)؟
12. كيف أثَّر غياب الأسير على العائلة على المستوى الاقتصادي؟

سادساً: مرحلة التحرر

1. كيف كان وقع الأخبار المتناقلة حول اقتراب موعد الإفراجات عن الأسرى (سواء كان ذلك في صفقة تبادل للأسرى، أو صفقة سياسية) على العائلة نفسياً واجتماعياً؟
2. هل أنهى الأسير كامل محكوميته أم خرج وفق صفقة تبادل أو صفقة سياسية؟
3. كعائلة للأسير، هل توجهتم لأي جهة رسمية أو حزبية في سبيل شمول الأسير في صفقة إفراج ما؟
4. هل تم تشكيل أو المشاركة في حملة شعبية أو رسمية للإفراج عن الأسير؟ وما هي طبيعتها؟
5. بشكل عام، كيف تصفون الاعتبارات أو المعايير التي تضعها السلطة الفلسطينية أو الفصائل الوطنية أو حركات المقاومة العربية في اختيار الأسرى في صفقات تبادل الأسرى أو الصفقات السياسية؟

سابعاً: مرحلة ما بعد التحرر

1. هل أثّرت فترة الأسر جسدياً أو نفسياً أو عقلياً على الأسير المحرر؟
2. كيف تصف انسجام الأسير مع واقعه الاجتماعي بعد تحرره؟
3. كيف تعاملت المؤسسات الحزبية والتنظيمية مع الأسير المحرر؟
4. ما هي طبيعة العمل الذي انخرط به المناضل ما بعد التحرر؟
5. كيف تصف دور العائلة كحاضنة أولى للأسير بعد تحرره؟ (السؤال موجه للأسير المحرر).

BIRZEIT UNIVERSITY

كلية الآداب-كلية الدراسات العليا

برنامج ماجستير الدراسات العربية المعاصرة

الصياد والتنين:

المطاردة في التجربة الفلسطينية من 1968-2018

ملحق رقم (2): أسئلة المقابلة المختصة بتجربة المطاردة

تستهدف أسئلة هذه المقابلة أربع فئات من المطاردين والمناضلين، وهي على النحو التالي:

1. المطاردون والمناضلون الذين عاصروا الانتفاضة الأولى 1987-1993.
2. المطاردون والمناضلون الذين كانوا في فترة تطبيق اتفاقية أوسلو 1994-1999.
3. المطاردون والمناضلون الذين عاصروا الانتفاضة الثانية 2000-2004.
4. المطاردون والمناضلون في الفترة 2005-2018.

المعلومات الإحصائية

الفئة: مطارد سابق مطارد حالي مناضل سجين مناضل محرر

العمر

المهنة

الحالة الاجتماعية

البلد الأصلي

مكان الإقامة الحالي

المستوى التعليمي

تهدف هذه المقابلة إلى استكمال البيانات والمعطيات لرسالة ماجستير بالعنوان أعلاه، وتستخدم لغرض الدراسة والبحث العلمي فقط.

الباحث: زكريا زبيدي

الأسئلة

1. ما هي الظروف السياسية التي أصبحتَ مطارداً في ظلها؟
2. ما هو الحدث الأبرز لديك والذي كان محفزاً للعمل الوطني؟
3. ما هي التحديات الأسرية والاجتماعية التي كانت في سياق المجهول أو المعلوم بالنسبة لك حول العمل الوطني الذي قمت به؟
4. هل شكل العمل النضالي خطراً على المحيطين بك من عائلة وأصدقاء؟
5. ما هي الإرهاصات-المؤشرات التي أذنت بقرب اعتقالك (اعتقال أحد أفراد المجموعة، إعلان العدو عن كشف بعض تفاصيل عملية ما... وهكذا؟)
6. هل تعرضت العائلة لتهديدات سلطات الاحتلال قبل عملية الاعتقال (اعتداءات، اعتقال، هدم منزل، منع سفر)؟
7. كيف لعبت الحاضنة الاجتماعية (العائلة، الحي، المدينة) دوراً في اختفائك ورعايتك؟
8. ما هي المدة التي أمضيتها كمطارد قبل أن يتم اعتقالك من قبل الاحتلال؟ ما هو واقع فترة المطاردة، المكان، المخابئ، الصعوبات، الأحداث والذكريات المميزة؟
9. ما هو دور العملاء في الكشف عنك أو تسليمك للاحتلال؟
10. هل تعرضت لمحاولة اغتيال فترة المطاردة، وما هي الطريقة؟
11. هل استخدمت استراتيجيات مبنية على دراسة أمنية خلال فترة المطاردة؟
12. هل كانت القرارات التي اتخذتها خلال فترة المطاردة مبنية على المعلومة الأمنية؟
13. هل كنت تواجه صعوبة في اتخاذ القرارات في وضعية الخوف؟
14. ما هو مكان إقامتك أثناء المطاردة (منزل، جبل، كهف، مغارة، مقبرة)، وكيف أثر على معنوياتك؟
15. كيف تعامل معك المواطن وما هي نظرته إليك؟ اذكر إيجاباً أو سلباً؟
16. ما هي الخطط أو المشاريع المقترحة التي قمت بها بعد "العفو عنك" كمطارد؟ هل تعتقد بأنك ستساهم في عملية تنمية بلدك؟
17. هل يشجع المجتمع الفلسطيني على فكرة المطاردة الوطنية؟ وكيف (إن كانت الإجابة نعم)؟
18. هل تقدم لك الحماية القانونية؟ كيف؟
19. ما هي البرامج التي أعدَّتها السلطة الفلسطينية لإدماج المطاردين والمناضلين ومساعدتهم و"إعادة تأهيلهم"؟
20. لو عاد الزمن بك إلى الوراء، هل ستصبح مطارداً مرة أخرى؟

المرجعية
قائمة المصادر والمراجع

بالعربية

- أدونيس. **الثابت والمتحول-حركات الاتباع والإبداع عند العرب**. بيروت: دار الآداب، 1973.
- إسماعيل، محمد. **تجربة جنوب أفريقيا: نيلسون مانديلا و المصالحة الوطنية**. القاهرة: العربي للنشر، 2014.
- الأغواني، أحمد. **الصهيونية وعنف الفوضى: الاستشراق، الاستعمار الاستيطاني والمستعربين**. بيرزيت: جامعة بيرزيت، 2018. (رسالة ماجستير غير منشورة).
- الأعرج، باسل. **وجدت أجوبتي**. بيروت: دار بيسان للنشر والتوزيع، 2018.
- ابن كثير، اسماعيل بن عمر. **البداية و النهاية**- مج8. بيروت: مكتبة المعارف، 1990.
- أمين، أحمد. **ضحى الاسلام**، ج 3. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 2001.
- الأنصاري، عبد القدوس. **طريق الهجرة النبوية**. جدة: مطابع الروضة، 1978.
- البرغوثي، عبد الله. **أمير الظل**. د.ن. 2012.
- البرغوثي، مروان وآخرون. **مقاومة الاعتقال**. رام الله: د. ن. 2010.
- بركات، رنا. "مجرمون أم شهداء: فلندع المحكمة تقرر-الإرث الاستعماري البريطاني في فلسطين وتجريم المقاومة،" **عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية**، المجلد 2، العدد 6 (2013)، ص. 55-72.
- بسيسو، معين. **باجس أبو عطوان: عاش البطل، مات البطل**. بيروت: دار الفارابي، ط2، 2014.
- بن داهة، عدة. **رحلة في رحاب دولة الأمير عبد القادر**. الجزائر: دار الخلدونية للنشر، 2014.
- بوعزيز، يحيى. **الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري**. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986.
- تماري، سليم. "الرؤية العثمانية لفلسطين: الترسيم العثماني الإثنوغرافي لفلسطين وسورية،" ترجمة عبد الرحيم الشيخ، **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد 84 (2010)، ص. 53-72.
- الجاحظ، عمرو بن بحر. **البيان والتبيين**- مج 1. بيروت: دار إحياء العلوم، 1993.
- الجعبة، نظمي. "الشيخ حسن اللبدي: مشاهد من ذاكرة مفقودة،" **مجلة الدراسات الفلسطينية**، المجلد 18، العدد 72 (2007)، ص. 70-79.

- جوردي، غورغاس. **الحركة الكردية التركية في المنفى،** ترجمة جورج البطل. بيروت: دار الفارابي، 2013.
- الحاج، قسم. "حظر التجول والإغلاقات العسكرية: اعتقال الزمكان الفلسطيني وتحريره"، ص119-165، في: عبد الرحيم الشيخ (محرراً)، **مفهمة فلسطين الحديثة: نماذج من المعرفة التحررية.** بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2021.
- _____. **الأغنية السياسية الفلسطينية: الملحمة الغنائية والرواية 1905-2015**. بيرزيت: جامعة بيرزيت، 2016. (رسالة ماجستير غير منشورة).
- حرب، سمير وآخرون. **أعراض مرضية: فترة الفيمابين ودوائر السلطة في حصون تيغارت**. رام الله: مطبوعات مشروع "أراض منقلبة"، بينالي الشارقة 13، 2017.
- حسونة، شعبان. **على جناح الدم** (مخطوطة).
- حسين، عبدالعزيز. **نيلسون مانديلا**. دار المؤلف، 2014.
- _____. **جيفارا**. دم، دار المؤلف، 2016.
- حماد، ثائر. "مقابلة: قنّاص عملية "وادي الحرامية" ثائر حمّاد،" **مجلة الدراسات الفلسطينية،** العدد 129 (2022)، ص. 24-36.
- _____. **إوار النار: قصة بطل عملية عيون الحرامية**. رام الله: نادي الأسير الفلسطيني 2016.
- حمدونة، رأفت. **الشتات-الحب، المقاومة، السجن، والحرية**. غزة: مؤسسة مهجة القدس، 2015.
- حنفي، حسن (محرراً). **ثقافة المقاومة**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2007.
- حويل، جمال. **معركة مخيم جنين: التشكيل والأسطورة-نيسان 2002**. بيرزيت: جامعة بيرزيت، 2012.
- _____ **معركة مخيم جنين الكبرى 2002: التاريخ الحيّ**. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2022.
- خضر، هشام. **مذكرات أرنستو تشي جيفارا**. الجيزه: مكتبة النافذة، 2008.
- _____. **نيلسون مانديلا**. القاهرة: دار طيبة للطباعة، 2013.
- الخليفة، مي. **من سواد الكوفة إلى البحرين: القرامطة من فكرة إلى دولة**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1999.
- الداقوقي، إبراهيم. **أكراد تركيا**. دمشق: دار المدى، 2003.

- الرفيدي، وسام. **الأقانيم الثلاثة**. القدس: مركز الزهراء للدراسات والأبحاث، 1998.
- رمضان، عبد العظيم. **القضية الفلسطينية بين مصطفى النحاس وعبد الناصر**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2003.
- زبيدي، زكريا، "الصياد والتنين"**، مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد 128 (2021)، ص. 105-121.
- سانتاريللي، اينزو وآخرون. **عمر المختار وإعادة الاحتلال الفاشي لليبيا**، ترجمة عبد الرحمن العجيلي. دمشق: مطبعة الإنشاء، 1988.
- سعدات، أحمد. **صدى القيد**. بيروت: دار الفارابي، 2017.
- سعد، ناجي عواد. **دراسات في المسألة القومية الكردية**. بيروت: الدار العربية للعلوم، 2005.
- سعيد، إدوارد. "جغرافيات محاصَرة، مشهديَّات متحارِبة"، تقديم وترجمة عبد الرحيم الشيخ. **إضافات-المجلة العربية لعلم الاجتماع**، العددان 49-50 (2020)، ص 70-86.
- سمبسون ، أنتوني. **مانديلا السيرة الموثقة**، ترجمة هالة النابلسي. بيروت: مكتبة العبيكان، 2011.
- سميث، كريس. **السلام الهش في سريلانكا**. أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث، 2008.
- الشريف، ماهر. **البحث عن كيان: دراسة في الفكر السياسي الفلسطيني 1908-1993**. نيقوسيا: مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم، 1995.
- شوفاني، إلياس. **الموجز في تاريخ فلسطين السياسي منذ فجر التاريخ حتى سنة 1949**. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1998.
- الشيخ، ناصر عائض.**عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام رضي الله عنهم**. الرياض: مكتبة الرشد، 2000.
- صايغ، يزيد. **الأردن والفلسطينيون: دراسة في وحدة المصير والصراع الحتمي**. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 1987.
- صبحة، محمد ناجي. **أمن المطارد: حرب العصابات بين النظرية والتطبيق الفلسطيني**. دمشق: مؤسسة فلسطين للثقافة، 2011.
- صوان ، محمد. **الحروب من أجل المقدسات من أمريكا الاسرائيلية الى فلسطين الهندية الحمراء** . لندن: إي – كتب، 2015.
- الطبري، محمد بن جرير. **تاريخ الطبري: تاريخ الرسل و الملوك**- مج 6. بيروت: دار التراث، 1378 هجري.

- الطهراني، محمد الحسين الحسيني. **خطبة الحسين يوم عاشوراء-لمعات الحسين**. دار المحجّة البيضاء، د.ت.
- عبد الكريم، خليل. **قريش-من القبيلة إلى الدولة المركزية**. القاهرة: سينا للنشر، 1997.
- عبد النور، خيثر وآخرون. **منطلقات وأسس الحركة الوطنية الجزائرية**. الجزائر: المركز الوطني، 2007.
- العلوي، هادي. **مدارات صوفية: تراث الثورة المشاعية في الشرق**. دمشق: مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، 1997.
- العقاد، عباس. **حياة المسيح في التاريخ وكشوف العصر الحديث**. القاهرة: نهضة مصر، 2005.
- العكش، منير. **حق التضحية بالآخر: أميركا والإبادة الجماعية**. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2002.
- عيسى، محمود. **حكاية صابر**. بيروت: مؤسسة فلسطين للثقافة، 2012.
- فايد، رجائي. **أوجلان الزعيم و القضية**. المكتبة الكردية، 2000.
- فتحي، محمد. **نيلسون مانديلا زعيم ثوار أفريقيا**. القاهرة: مكتبة جزيرة الورد، 2010.
- فرسون، سميح. **فلسطين والفلسطينيون**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2003.
- قطامش، أحمد. **في التنظيم الثوري السري**. فلسطين: مكتبة القدس العامة، 2011.
- _____. **فلسفة المواجهة وراء القضبان**. القدس: منشورات دار الراية، 1982.
- كبها، مصطفى ووديع عواودة. **أسرى بلا حراب: المعتقلون الفلسطينيون والمعتقلات الإسرائيلية الأولى: 1948-1949**. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2013.
- الكيّالي، عبد الوهاب. **الموجز في تاريخ فلسطين الحديث**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1970.
- مجموعة مؤلفين. **موسوعة تجارب الأسرى الفلسطينيين والعرب**. القدس: جامعة القدس -مركز أبو جهاد لشؤون الحركة الأسيرة، 2014.
- المدني، عمر. **أعلام الجهاد**. عمان: الدار المتحدة للنشر، 1998.
- المساري، محمد العربي . **محمد بن عبد الكريم الخطابي : من القبيلة إلى الوطن**. بيروت: المركز الثقافي العربي، 2012.
- المشاط، عبد المنعم. **نظرية الأمن القومي العربي المعاصر**. القاهرة: دار الموقف العربي، 1989.
- مناع، عادل. **أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني (1800-1918)**. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1997.

- منصور، عصمت. **الخزنة: رواية الحب والحرية**. رام الله: طباق للنشر والتوزيع، 2022.
- ناصيف، أحمد. **صفحات في تاريخ جيفارا**. دمشق: دار الكتاب العربي، 2010.
- نصر، فاطمة. **مسيرة طويلة نحو الحرية السيرة الذاتية لنيلسون مانديلا**. القاهرة: دار الهلال، 1995.
- الهودلي، وليد. **ستائر العتمة**. رام الله: المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي، 2003.
- اليوسف، يوسف. **مقالات في الشعر الجاهلي**. بيروت: دار الحقائق، 1980.
- يونس، حمزة. **الهروب من سجن الرملة**. الجزائر: دار أسامة، ط2، 1999.

بالأجنبية

- Berowitz and P.G. Bock. *American National Security.* New York: Free Press, 1965.
- Hans J . Morgantau. *Politics Among Nations :The Setrugle for Power and Peace*. Alfred .A. Konop, Sixth Ed, 1985.
- Robert O.Keohane And Joseph .S. Nay. *Power and Interdependance.* Boston: Little and Company, 1977.
- Shehadeh, Raja, *A Rift in Time: Travels with My Ottoman Uncle*. London: Profile Books. 2010.

الروابط الإلكترونية

- علي الصلابي، " استشهاد الحسين بين الحقائق والاوهام "، www.libya-web.net ، (استرجع بتاريخ 2018/12/21).
- ذياب محسن، " قراءة في فكر القرامطة/ محمد أركون نموذجا"، www.m.ahewar.org (استرجع بتاريخ 2018/12/6).
- فريق التحرير، "تاريخ مختصر للهروب من السجن في فلسطين-1"

https://babelwad.com/ar/houroub-men-elsejen/فلسطين/ 2017/04/19 (استرجع بتاريخ 2018/12/8).

- فريق التحرير، "تاريخ مختصر للهروب من السجن في فلسطين-2"، https://babelwad.com/ar/houroub-men-elsejen-part-2-3/فلسطين/ 2017/04/27 (استرجع بتاريخ 2018/12/8).
- فريق التحرير، "تاريخ مختصر للهروب من السجن في فلسطين-3"، https://babelwad.com/ar/houroub men elsejen 3/فلسطين/ 2017 /05/23 (استرجع بتاريخ 2018/12/11).
- يوسف الحسن، " ثقافة المقاومة"، جريدة "الاتحاد"، 2/14 /2017 https://www.alittihad.ae/article/ (استرجع بتاريخ 2018/11/15).
- إيهاب محارمة. "صور الحب في التراث الفلسطيني: غبيشي وحسناء نموذجاً"، https://cutt.us/vOVCn 2017/2/2 (استرجع بتاريخ 2 آذار، 2017).
- "أسباب ودوافع الانفصال لدى الأكراد"، http://raaxadaguurka.blogspot.com/2016/09/blog-post_41.html (استرجع بتاريخ 2017/7/15).
- " الدور المؤثر لحزب العمال الكردستاني في القضية الكردية في تركيا"، http://raaxadaguurka.blogspot.com/2016/09/blog-post_4.html (استرجع بتاريخ 2017/7/15).
- عبد الناصر سنكيبي، " مرور 12 عاما على اعتقال عبد الله أوجلان" (2011) http://www.bbc.com/arabic/middleeast (استرجع بتاريخ 2018/12/1).
- موسوعة الجزيرة العلمية، "نمور-التاميل" (2014)، http://www.aljazeera.net/encyclopedia (استرجع بتاريخ 2018/12/4).
- ويستكوت، كاثرين، " لماذا أطلق اسم زعيم الأباتشي "جيرونيمو" على عملية بن لادن" (2011)، http://www.bbc.com/arabic/worldnews (استرجع بتاريخ 2018/12/3).
- شيرين أحمد ، "من هو جيفارا"، https://mawdoo3.com/ (استرجع بتاريخ 2018/12/5).